صلاة إبليس

رواية

صلاة إبليس
رواية
أحمد قرني

الطبعة الأولى: 2015
رقم الإيداع: 2015/8025
ISBN: 978-977-6452-81-7

دار النسيم للنشر والتوزيع
ت: 01006229487
e mail: daralnassim@yahoo.com
دار النسيم للنشر والتوزيع

المدير العام: **أشرف عويس**
إشراف فني: **د. هند سمير**

صلاة إبليس

رواية

أحمد قرني

إهداء

أى جنون ارتكبته بحق هؤلاء الذين كتبت سيرهم دون استئذان هل يغفر الله لى تلك الفعلة.. أم سأبوء بإثمى وإثمهم.

أحمد

(1)
خور الجافي

هذه المرة.. أصعد إلى الخور وأجلس بالساعات الطويلة في انتظاره، لكنه لا يأتي كعادته في المرات الأخيرة، لم يفعل هذا معي من قبل، هل ظن الملعون أنني كبرت في السن ولم أعد أصلح لقيادته؟! ملعون حقًّا، أنا لا أكبر ولا يؤثر فيّ الزمن مثلي مثل أبي الذي يرقد في الخزان مسجى في بردته، تظنني هرمت واشتعل رأسى شيبًا، لا.. وهذه راجية مازالت تشعر بفحولتي وقدرتي على قنصها في كل مرة تفرد ظهرها إلى جواري على السرير وتقول وهي تشد الأصبع الكبير بقدمي اليمنى لتسمع صوت فرقعته: "كأنها أول مرة يا شيخ عرنيش، خُلقت مثل أبيك الجافي تعشق النساء وتدخل أجسادهن ببراعة لص، تقطف الشهوة من عيونهن ولا تتردد حتى تصل إلى مبتغاك".

أهل المناشي يؤمنون بقدرتي كما كانوا يؤمنون بقدرة الجافي الذي ورثت المهابة عنه فلا يوجد أحد في بر المناشي كله إلا ويخشى عقابي وسخطي. فلماذا تتعبني، كأنك تأمن عقابي وغضبي؟ أنت تعرف كم يكبدني الصعود إلى الخور ومرات الصعود قليلة وتفني البدن وترهق الروح، أوصاني الجافي ألا أصعد إلى هنا إلا لضرورة، ياله من أحمق صغير.. فى المرة القادمة سوف أحضره مرغمًا مسلوب الإرادة، ربما يتخيل نفسه حرًّا طليقًا ككل المخدوعين الذين يظنون أنهم أحرار، لا يوجد أحرار في بر المناشي.. هم في الحقيقة يقبعون داخل غرف مغلقة بإحكام ويتحركون في فضائها كالعرائس التي نشاهدها في مولد الحناوي مشدودة إلى خيوطها الحرير التي لا يراها الناظرون ويتوهمون أنها حرة لكنها تتحرك وفق

هوى صانعها الذي يجلس بعيدًا لا يراه أحد، لا حرية في عالم مصنوع من أحجار الرخام، يظن أن خروجه عن طاعتي حرية وأن عصياني ومخالفة أمري يمكن أن تدخل على نفسه العاصية سعادة لم يجربها من قبل، يمرح كما يشاء في بطن المناشي، لا يعرف أنه بمقدوري حينها وأنا أتكئ على فرع الزان أن أطرده من الخُور. أُغلقه في وجهه وأعلقه بين السماء والأرض فلا يقف ولا يقعد ويظل تائهًا هائمًا على وجهه، لا أرضًا تقله ولا سماء تظله، سيدخل التيه فلا يعرف الجهات الأربعة ولا عدد ساعات اليوم ولا الفصول المتعاقبة، سيمرح في شقاء أبديّ. تلك أرضي وليست أرضه كما يتصور وهمًا، سأطرده بكلمة منِّي لأنه عصاني أو أسجنه إلى الأبد في الخزان، الخزان هو مصير كل عبدٍ آبقٍ يخرج عن طاعة سيده، هناك سيجد ما يؤذيه، وما سيعتقد وهمًا أنني غير قادر على فعله، لن ينصلح حاله بمجرد كلمات طيبة أصبها في أذنه التي لا تعي، الهداية لكل مهتد، أما العاصي فلا يقدح معه كلام طيب أو حتى مجرد التلويح بوعيد أو بعقابٍ رادع، هل ينسى هذا الآبق أن والده لم يكن سوى مخلوق ضعيف لا حيلة له وأن الجافي هو الذي اصطفاه لنفسه ووهبه أرض الخور وهو الذي كان هائمًا على وجهه في الملكوت، ليس له أرض ولا سماء، سوف أبدأ في اتخاذ إجراءات صارمة لعقابه، أعرف أنه جُبل على التمرد وعدم الطاعة ويسعى دائمًا لمضايقتي، لكنها مصالح الناس التي وثقت بي، كيف أتجشم عناء رحلة كهذه ولا أجده؟! هناك من بيتي في جبريل حتى أمر على عزبة الأصفر ثم أصعد إلى الخُور حيث المدق الوعر بين تباب شاهقة ومصرف الجبل الشرقي يمر أسفل السائر، يمنحه الرهبة والرجفة من هول السقوط فيه من علٍ، وكم مرت على مسامعى أحاديث وحكايات أجدادنا في المناشي عن الذي فكر في الصعود للخور وكان مصيره أن سقط في "مصرف الخور الواطي".. كما يحلو للبعض أن

يطلق عليه، جسر الخور الذي صار حلمًا للعابرين الطيبين ونقمة وشقاء على أعداء المناشي حين يقتربون منها ويلسعهم فحيح الأفاعي الرابضة في بطن حَلفاء الوادي، أتجاوز المصرف وأجلس لأستريح قليلا عند أنف الخور الذي تظله شجرة السيسبان، ألتقط أنفاسي تحت ظلها، هنا تحت أنف الخور جلس الجافي ذات يوم وكان يمضغ رطب نخلات عطية التي وضعها في حجره ويلقي بنواتها في مصرف الخور الواطي، تتقافز القراميط في المصرف ويشبك الجافي أصابعه ويحكي لي عن اليوم الذي ركب فيه البغلة وسار طويلا حتى شق الصحراء الغربية على ظهر الدابة وجلس بين يدي العمدة فتوح الكبير وأخذ يسأله وفتوح يجيب، كان غريبًا وسكن هذه الأرض، ثم ما لبث أن صعد الخور وأنشأ مملكته هناك حيث الأحراش والخوف والوحدة وأورثني هذه الأرض وما عليها.

بعد قليل سأقوم متكئًا على عصاتي واتجه يسارا حيث نخلات عطية، أربع نخلات أمهات يقفن أمام الوادي الفارغ يتابعن سريان الماء في مصرف الخور الواطي يقفن كشهود على هذا الوادي المخيف، لم يزر تلك النخلات أحد منذ سنوات، يتساقط منهن الرطب شهيًّا ويظل بعضه على عراجينها حتى ينشف، تلك الرطبات هي طعام جان الخور. لا أحد يستطيع أن يتسلق واحدة من نخلات عطية لأنها قريبة جدًا من وادي الحلفاء وعليَّ حين أصعد إلى الخور أن أمر وسط حلفاء الوادي حيث تسمع حفيف الأفاعي وهي تتحرك بجوار قدميك، الأفاعي السامة التي تسكن حلفاء الوادي ويسكن الجان في بطنها والسم يفور ويكمن تحت جلدها المشقوق من حرارة شمس يوليو التي تحرق وادي الحلفاء الذي تبلغ مساحته على مرمى البصر حوالي عدة فدادين شاسعة، لا يسكنها أحد وتطويها الريح العاتية ذهابًا وإيابًا وترتع فيها الجان ليل نهار حين تقطعها مشيًا على قدميك وسط هذه الحلفاء البرية. لا أحد غير عرنيش الجافي في بر المناشي

كله يستطيع أن يقطع حلفاء الوادي سيرًا على قدميه وحدي أفعل هذا حين أصعد لألقى الملعون وبعد كل هذا لا أجده، ربما كعادته يلهو في إحدى قرى المناشي يتفرج على مشهد الغوازي في الموالد التي تجوب قرى المناشي، كم مرة رأيته يفعل ذلك! مرات ومرات حذرته من فعلته هذه التي ربما تودي بحياته لو فطن أحدهم إليه وعرف من هو، خاصة وأنه يلهو كشاب غريب وسيم يضع الكوفية الكشمير على رقبته ويقص شاربه بمهارة ويمسك بسيجارة التبغ الأجنبى بما يغري الغوازي به، ماذا سيحدث لو طلبته إحداهن إلى خيمتها مثلما تفعل كل مرة مع أحد زبائنها؟! ضحكت وأنا أتصور الملعون يرقد في حضن إحداهن وهي تداعبه وتمرر أصابعها اللينة على شعره، أصابع الغوازي لينة وطرية مثل أفخاذهن لأنهن يضعن أجسادهن في طين وادي الحلفاء يدلكن أوراكهن به ويتركنه حتى الصباح، وفى الصباح يفرمن حلفاء الوادي على وجوههن، تلك وصفة تعرفها الغوازي جيدًا ومعظمهن يعرفن تأثيرها على أجسادهن الطرية؛ لذا لا يبدو عليهن الكبر ويحافظن على جمالهن وفتنتهن التي تأحذ لب رجل المناشي حين يشاهد تلك الأجساد الطرية الرشيقة تتلوى أمامه على سجادة عجمي منقوش عليها أحصنة سمراء، حين تهبط إحداهن على شفتيه لقضمهما بلطف، ستحاول أن تمرر كفها الطري المخضب بالحناء المغربية حول رقبته لكى تشعل نار جذوته وتبعث بحمم تنهدها حتى يخرج عن جموده، ربما ستتخيله شابًّا صغيرًا ألجمه الحياء في سريرها فلم يعد قادرًا على استدعاء فحولته التي هربت منه فجأة، أو هو شاب لم يذق عسيلة امرأة من قبل وجاء على استحياء ليعرف تفاصيل جسد شبق رآه أمامه كأفعى الكوبرا يرهبه الاقتراب ويقعده وهم الفشل فيقعد محصورًا لا يستطيع الإقدام، وكان عليها أن تترفق به وهي التي جربت كل أصناف الرجال وطاف على مخدعها معظم رجال الناحية، تحاول معه،

تقدم له كأسًا كي تخدر أعصابه المشدودة، تغرقه بسيل من القبل وهي تحاول أن توقظ أوصاله النائمة، تدلك رقبته بكفيها ثم تمرر أصابعها على كتفيه، بينما تهبط هي بوجهها على رأسه، تلامس ذقنها شعر رأسه وتميل حتى تلمس أرنبة أنفه بخدها الغارق في الأحمر حتمًا وفي تلك اللحظة ستوقظ أعضاءه النائمة ويهبط بشفتيه على شفتيها لكنها تنسحب فجأة تاركة جسده المشتعل توًّا في فراغ، يسقط عن آخره حين يجري خلفها في الخيمة بينما يحاول التخلص من ملابسه، وحين تنقطع أنفاسه تهدأ في مشيتها وحينها تتصنع السقوط، تدع إحدى قدميها تنزلق تحت شراشيب السجادة العجمي، وحالما تسقط سيتلقفها بين بيديه ويمرح في جسدها كعابر سبيل، يكتشف دروب الجسد الملقى بين يديه ومعالمه، هكذا تصورت الأمر مع هذا الصغير الملعون حين تترك جسدها أمامه نديًّا شهيًّا لكنه عاجز عن الاقتراب وإذا أعيتها الحيل في إشعال ثلجه ربما ستحاول معه بطريقة أخرى، ربما مثلا ستحاول أن تمنحه الثقة في نفسه بكلمات رقيقة وهي كامرأة جربت صنوف الرجال وتعرف أن منح الرجل الثقة في نفسه يأتي بثمار عظيمة، تصورته وهو في هذا الموقف كيف سيكون حاله؟!.. كتمت ضحكاتي وأنا أتصور الغازية وهي تمسك بفردة الشبشب الجلد وتعطيه على ظهره حتى يهرب من خيمتها وهو يصيح ويجري كطفل مارق يريد أن يفر من يد أمه. لا أعرف لماذا يستهويه مشهد الغازية وهي تتلوى بجسدها أمام المارة في المولد؟! قلت له وحذرته مرات عديدة وصرخت في وجهه، لماذا يترك وادي الحلفاء.. مكانه وسكنه، وأرض الحلفاء أرض آبائه وأجداده منذ زمن سحيق، هي مسكنه الذي يأويه من الخطر، الخطر يحدق به حين ينزل إلى المناشي حيث البيوت والناس، حكيت له مصائر من هم مثله.. كيف كانت نهايتهم؟! لكنه لا يسمع حين يعرف أن هناك مولدًا في أية عزبة من عزب المناشي، يترك

وادي الحلفاء وينزل إلى المولد دون تروٍّ، يتصرف كطفل صغير لا يضع حسابًا للعواقب، كم مرة نهرته وها هو يعاود فعلته. جعلني أصعد إلى الحلفاء مرات عديدة ولا أجده، كنت في الماضي أصعد إلى الوادي بمهارة وسرعة لكنني الآن لا أستطيع وربما أتوقف بعض الوقت عند نخلات عطية الأمهات، أشم الهواء النقي الآتي من الجبل ومرات عديدة كانت تحدثنى نفسي بعقابه قبل أن أخوض في وادي الحلفاء، الحلفاء البرية مدببة وتشك القدمين كما أنها طويلة تعوق السير، أما ما في باطنها من الزواحف فتُروى عنها الأساطير عن حجم الثعابين والأفاعى التي تسكنها. حين حكيت لراجية ما انتابني من رعب وتملكت جسدي رعشة الموت حين انقطعت أنفاسي وشعرت بالموت يدخلني، كان يومًا لا أنساه حين وقعت مرغمًا في وادي الحلفاء بعد أن انغرست شوكة في بطن قدمى صرخت متألما ووقعت والتفت الحيات حولي حتى لامست جلدها وصرخت، وحضر الجافي على عجل فرأيت عجبًا؛ حين رأته الحيات لاذت بالفرار، وعندما زالت دهشتي قال لي الجافي: "اسمع أيها الصغير.. سأعلمك كلمات إن قلتها لم تقترب منك الحيات ولا الثعابين وخافت منك العقارب، ستكون محصنًا، لا يؤذيك زاحف مهما قوي نابه أو اشتد سمّه" يومها حفظت تلك الكلمات من كثرة ما رددتها في نومى ويقظتى، ما أشد هجوم الزواحف واقترابها من جسدي. وذات مرة ركبت حماري الأعرج وقلت يحملني بعد أن كبرت إلى وادي الحلفاء، ركبت فوقه وسرنا حتى مررنا من الخور ورأيت المصرف أسفل مني، منظر يثير الرعب في النفوس لكنني اعتدته من سنوات فلا أشعر بالخوف وأنا أسير فوقه، الذي يشعرني بالخوف بعد مرور هذه السنوات هو وادي الحلفاء، كلما مررت بين الحلفاء البرية أشعر بقشعريرة في جسدى، حين هممت أن أدفع بالحمار كي يمر بي لأعبر وادي الحلفاء على ظهره، دخل بي إلى الوادي لكنه

ما إن سمع فحيح الأفاعي حين اقترب منها حتى رفس ونهق عاليًا ورماني من فوقه وولى سريعًا عائدًا إلى أرض المناشي دون أن يلتفت إلى ندائي أو تهديدي له بالضرب، الحمار الأعرج انطلق من شدة الخوف حتى إنك لا تشعر أنه أعرج، انطلق كالسهم عائدًا، كان الخوف قد أربكه، من يومها ولا أفكر في أخذ الحمار معي إلى وادي الحلفاء وأخوض وحدي هذه المعركة، وحدي أقطع فدان الحلفاء، ووحدي أشعر بالرجفة، ووحدي أنتظر الموت في أية لحظة، الموت القادم سيأتي حين تنفث واحدة سمها في وريدى الأزرق النافر حين تقرر واحدة من أفاعى الحلفاء مداهمتي دون سبب، الموت يكمن بين فكيها ونابها البارز، تتأوه وتصدر فحيحًا، لن أعرف السبب وراء هجومها الباغت، ربما ساعتها لن تفلح كلمات الجافي التي علمني إياها، قال لى بعد أن أنهى تلاوتها: "سأعلمك كلمات تحفظك من غدرها". صمت قليلا ثم قال: "لكن هناك من المخلوقات من جبل على العصيان فاحترس منه". سأقف ساعتها أمام هذا العاصي في صمت، لن أحرك ساكنًا ولن يكون بمقدوري المقاومة. لا مفر من الموت المحقق وقت انقضاض واحدة من أفاعي الحلفاء البرية أو واحد من سكانها الكثيرين، العقارب أو الثعابين أو الطريشة، هذه الأرض مهجورة منذ سنوات طويلة، لم تمر قدم بشر على هذه الأرض، لم يمر أحد غير عرنيش الجافي وأبوه من قبله، لا يستطيع أحد من أهل المناشي أن يأتي إلى هنا، حتى الأراضي الزراعية التي تجاور وادي الحلفاء تركها أصحابها دون زراعة حتى بارت الأرض وضرب الملح باطنها وصارت مهجورة، الكل يخشى الاقتراب من هذا الوادي ولم تفلح حتى الحكومة في أن تزيل الحلفاء التي تشعبت وتداخلت وطالت حتى أصبحت إزالتها من الوادي أمرًا مستحيلا، كثير من رجال الحكومة حضروا بصحبة العمدة فتوح الكبير.. عمدة المناشي، ولكنهم بعد المعاينة يدركون أنه من المستحيل

إزالة كل هذا الكم من الحلفاء البرية التي اخترقت جذورها باطن الأرض لعدة أمتار.. وهذا يحتاج إلى معدات ثقيلة ليست لديهم، العمدة يطمع في أرض وادي الحلفاء ويظن أن بمقدور الحكومة أن تهذبها له، حلم بذلك كما حلم به جده فتوح الأكبر، لكن هذا لم يحدث.. ليس بسبب الحلفاء فقط ولكن لأنه وادٍ مسكون، من يقترب منه يمسه الجان وربما يسقط تحت الأرض ولا يعود أبدا، هكذا سمع الناس تلك الحكايات القديمة عمَّن نزل وادي الحلفاء ولم يعد منه حتى الآن ولا أحد يعرف ما الذي جرى له هناك، والحقيقة أن أحدًا لم يزر وادي الحلفاء وعاد حتى يعرف الناس ماذا جرى له؟! الوحيد الذي يذهب ويعود كالجن هو أنا فقط، وحدي الذي أهبط وادي الحلفاء كي أقابل هذا الملعون وها أنا لا أجده، عرفته منذ أن كان صبيًّا صغيرًا، أبوه كان يحضره معه، أبوه الذي لم يتخلف يومًا عن موعد وعدني إياه، أما هذا الصغير اللاهي فقد سقاني الأمرّين، يتصرف كصبي صغير رغم أنه أصبح في طول نخلة عطية لكنه لا يشعر بالمسؤولية ويظل يتنقل بين الموالد بحثًا عن الغوازي، لا أعرف كيف لمثله أن تغريه الغوازى؟! وكيف يسمح لنفسه أن يترك وادي الحلفاء دون استئذان، ماذا سيحدث لو أمسكه فتوة من فتوات المولد، سيربطه كصبي صغير تلصص على راقصة من فتحة الخيمة وهي تخلع ملابسها لترتدى بذلة الرقص، سيربطه حتى يأتي إليه أبوه متوسلا ويدفع "المعلوم" ويأخذ ابنه في يده بعد أن يوسعه ضربًا، ماذا سيحدث لو ربطه أحدهم في جذع نخلة؟! هل يمكننى أن أذهب إليه وأفكه وآخذه في يدي كما يفعل الآباء مع صغارهم؟! طبعًا لا أستطيع أن أفعل معه هذا وبالقطع لن يعرف حقيقته أحد.. وساعتها لا أعرف بالضبط كيف أتصرف؟ كل مرة أقول له وأحذره من تهوره ومن أفعاله الصبيانية لكنه يضحك ثم يعود إلى فعلته، لابد أن أبحث له عن عقاب، لا مفر من ذلك، العقاب

هو الحل، كفى تدليلا لمثل هذا اللاهي، حين أعود للبيت سأفكر في عقاب مناسب له ليردعه ويجعله يكف عن الاستهانة بتهديداتي المتكررة والتى لا تجد أذنًا واعية لديه. الملعونة راجية ابنة حسن الشحات ستتهكم عليّ بمجرد رؤيتي، هي تدرك بفراستها ووجهها القبيح أننى لم أجده وأننى عدت خالي الوفاض، مهما حاولت أن أبدو أمامها متماسكا لكنها ستسرع بغلق الباب خلفى وستصيح كغراب البين وتنعق بصوتها الذي يشبه فحيح أفاعي وادي الحلفاء، ستخلع طرحتها السمراء لأراها كعجوز شمطاء بشعرها الأبيض المتعرج، لن تكف عن اتهامي بالخذلان وأنني بسبب تهاونى مع هذا الملعون سيستخف بي، ويهجرني الناس في عزبة الأصفر وربما في المناشي كلها، تصرخ وهي تندفع نحوي في حركة مباغتة غير متوقعه وتمسك بتلابيبي وتدفعني ناحية الزير المشروخ فيرتجف وتسقط منه قطرات مياه تتجمع على فخار الزير المدهون بالأسمنت، الزير الجالس فوق الحمالة الحديد في الدهليز، تتجمع قطرات الزير الساقطة منه لتصنع سرسوبًا يسقط على "حلة" صاج قديمة تضعها راجية تحت الزير، تمتلئ بقطرات مياه رشحت منه على مدار اليوم، تسبني راجية وتدفعني للخلف بيديها، كدت أقع وسندت بكف يدي على جسم الزير، تراقص جسمه الفخار على الحمالة الحديد وبدا منتشيًا من أفعال راجية وبسبب فعلة كهذة منذ زمن سقط وانشرخ جسده وعالجته ودهنته بالأسمنت، الحمد لله هذه المرة لم يسقط الزير بينما سقطت راجية حين تعثرت قدمها في عتبة باب حجرة "النذور"، سقطت ولم أسمع لها صوتًا، سقطت كحمار ضخم لكنها لم تئن ولم تتوجع، ظننتها ماتت حتى هزت عريشة البيت ريح خفيفة أو هكذا ظننتها، ريح لمست بأصابعها أعواد البوص الفارسي المرصوصة على سطح البيت، حركت سواد عينيها إلى أعلى وهي جالسة على الأرض وقالت:

- الصبي الملعون حضر، هذه هي كفه تعبث بحزم البوص المرصوصة فوق السطح.

نظرتُ إلى أعلى، كان هو، أخذت أسبه وأسب أمه، كيف يتركني أقطع هذا الطريق الوعر- طريق الخور- وأخوض في وادي الحلفاء وحدي وأجلس في انتظاره عند نخلات عطية ويجلس هو منتشيًا بهواء عليل فوق سطح البيت؟! يلهو بأعواد البوص ويتفرج بتلذذ على عراكنا، يتفرج الصغير الملعون على راجية وهي تمسك بتلابيبي وتدفعني كي أسقط على الأرض ولولا أنني سندت بكفي على جسم الزير الفخار لكنت مكانها الآن على الأرض أصرخ من الوجع، لكني سأحسم الأمر وحان وقت عقاب هذا الصغير اللاهي كي يكف عن أفعاله الصبيانية معي، حان وقت عقابه، سأقوم الآن إلى حجرة الخزان لأفتح الدولاب الحديدي، كنت قد نسيته منذ زمن لكن هذا الملعون أعادني إليه، كنت قد هجرت هذه الحجرة منذ فترة طويلة، لم أطأ أرضها ولم أتعفَّر بترابها، هذا التراب الذي أصابني بالربو كلما شممت غبارها تعكر صفو رئتي وانتابني ضيق في التنفس، سنوات وسنوات قضيتها في هذه الحجرة التي لا يصلها الضوء سوى سرسوب شعاع ضئيل يهبط من سقفها حتى حذرني طبيب الصدر الذي حدق فيّ بعينيه بعد أن حملق في صورة الأشعة وحذرني من التعرض للغبار، ربما لهذا ظن الصغير اللاهي أنني لن أستطيع إيذاءه لكن مهما حدث سوف أدخل الخزان وهناك سوف أبحث له عن عقاب رادع، حتمًا سأجد ما يردعه ويعود إلى طاعتي مرغمًا، أبي علمني أن أكون قويًّا ولا أفرط في حقي.. ربما غر هذا الملعون حلمي، راح يتمرد، لم يخش قدرتي ولا عذابي، خرج عن طاعتي واستحق الطرد من رحمتي، سأشرع الآن في تأديبه ولا سبيل إلى إصلاحه سوى سجنه هناك في الخزان، سينال أشد العذاب وهناك سيركع ويتألم ويبكى، وسيجرب لأول مرة في حياته بشاعة

الوحدة ومصير العاق، لن يرق له قلبي إن صرخ واستغاث وإن تشققت روحه أمامي وتفتت جسده وانبطح على تراب الخزان الناعم يزحف على ركبتيه كأفعى الخور يتلوى من شدة الألم الذي يسكن جسده ولن يبرحه حتى يقسم على الطاعة ويهجر المعاصي ويؤمن أن لى حقوقًا عليه، غدًا سيحدث هذا، غدًا سيرى مالا عين رأت ولا مهرب منِّي، هذه أرض الخزان وتلك سماؤه.. أين المفر؟ مهما صنعت لن تستطيع أن تخرج من سجني الذي فرضته عليك عندما أبيتَ الطاعة، ستبقى هنا أبد الدهر حبيس جدران الخزان، لا حيلة لك ولن يمكنك التمرد على قدرتي كي تعرف أنه لن تدخل أرض الخور إلا بإذني ولن تمرح في أرض المناشي إلا بإذني وأنك برغم قوتك ضعيف أمام سلطاني وجبروتي، سأحملك إلى أرض الألم ولن تبرحها، ستمكث زمنًا لن تحصيه حيث ظلمة الخزان ووحشته وترابه الناعم الذي يدخل الصدور ويسد مسامها، يجعلك تسعل مثلي بشدة، لن يرق قلبي لعاصٍ كما علمني أبي الجافي الذي يرقد جسده هناك بعيدًا في تراب الخزان الذي لم أزره منذ سنوات، يرقد جسده الذي لا يبلى وحده في ظلام يلفه ظلام، ظلمات بعضها فوق بعض، يرقد في ثلاث لفافات من التيل الأبيض اختارها بنفسه ووضع بين كل لفة وأخرى ورقًا من حلفاء الوادي الأخضر اختاره بعناية وقال لي:

- سيبقى جسدي لا يبلى ما بقيت ورقات الحلفاء خضراء لا تيبس.

وقال لي يومها:

ـ ضع جسدي في الخزان حتى تهدأ روحي، وحتى لا تصل إليه قدم الملاعين. إنهم يريدون أن يعبثوا بجسدي، الخزان هو المكان الذي يخيفهم ولا يدخلونه طائعين أبدًا.

(2)

حريش

"ما أقوم به لن يفعله غيري"

وقفت على سطح بيتي وارتكزت بكفي على فلق النخل الذي نخره السوس منذ زمن، وحده يحمل سقف البيت لسنوات طويلة منذ أن بنى أبي هذا البيت في عزبة الأصفر، البيت الذي يجلس في حضن جبل الأصفر، العزبة تابعة للمناشي، مناشي بني عثمان التي تضم بعض العزب منها عزبة هليل وعزبة شماطة وجبريل، أتطلع من فوق سطح بيتي بعينيّ إلى الأفق الممتد لأرى وادي الحلفاء الذي يقبع بعيدًا، بدا ككائن خرافي ضخم رأسه هناك ناحية الجبل- رأس منكوشة الشعر- وأطرافه المتباعدة تلامس ترعة المناشي، وأنف الخور الذي يمتد خرطومه بعيدًا عن الجبل وتظله شجرة السيسبان، أرض لم تصل إليها قدم بشر، الذي يذهب إلى هناك ربما لا يعود، الفقر يأكل أهل المناشي برغم خصوبة أرض الخور وكنوزها التي تحدّث عنها الأجداد، إلا أن أحدًا لا يفكر في الصعود إلى الخور وجمع كنوزه وحملها إلى بر المناشي، وحده أبي صميدة الغابي الذي صعد إلى الخور لكنه رحل بعد أن زرع حلمه في رأسي الصغيرة وقتذاك، حتى عندما كنت أمسك بكف سماح بجوار عنباية الحاج مفتاح وأقول لها:

- ما رأيك؟ يومًا ما سأصعد الخور، وسأصل إلى أرض الحلفاء.

كانت سماح تصرخ في وجهي وتقول:

- هل تريدني أن أفقدك، أعيش بقية حياتي وحدي؟

- لكنني سأعود يا سماح. لا تخافي أنا مثل فرخ الجان.

- ومن ذهب وسلم يا حريش؟ كل من صعد أرض الحلفاء لم يعد.

كانت سماح ترتجف، شعرت بكفها البارد ينسحب من بين أصابعي، رأيت عينيها الزائغتين تذهبان إلى البعيد، في نظرة شاردة كانت- بالتأكيد- تتذكر حكاية صميدة الغابي، الذي لا تنساه المناشي حين صعد الخور خلف جاموسته التي قطعت حبلها وشردت منه، كان نعسانًا وهو عائد من الغيط قبيل أذان العشاء حين عرج على ظهر جحشه الأبيض على أرض الفدان، فجأة.. وكان الغابي غافيًا على حماره انقطع حبل الجاموسة وانطلقت هائمة على وجهها بين الزروع، بينما الحاج صميدة الغابي غافٍ على ظهر جحشه الأبيض الذي كان يعرف الطريق إلى بيته، نزل من شارع سيف النصر الذي يحازى سور المقابر حتى انتهى به إلى بورة الزيني وتنبه الحاج حين وقف الجحش أمام البيت، صحى من غفوته ونزل الحاج صميدة عن حماره، نظرت الست هداية زوجته فلم تجد الجاموسة، خبطت على صدرها وصرخت بينما كان صميدة الغابي يحمل حزم بوص الجراوة ليدخلها من الدهليز، ألقى حزمة الجراوة وجرى على صراخ هداية التي لم تكف حتى وضع يده على فمها المفتوح عن آخره، ظل يجري بين البيوت باحثًا عن الجاموسة الشاردة، أعياه البحث حتى أذان الفجر ولم يعثر عليها، دلَّه "فرج نحيته" على الجافي.. همّ لكنه تراجع عائدًا، حين لمحته هداية من أول الشارع ويده خاوية من حبل الجاموسة راحت تقبض حفنًا من التراب وتنثرها على رأسها العارى، ارتد عائدًا وصمم أن يولي وجهه ناحية بيت الشيخ الجافي عملا بنصيحة فرج نحيته، بيت الجافي كان يبعد عن بيوت العزبة، بيت شارد يقف على قدميه بعيدًا، يطل بوجهه على وادي الحلفاء ويعطي ظهره للسكنات، بناه الجافي والد الشيخ عرنيش على جرف ترعة المناشي، رسم حوائطه على شكل صومعة راهب، صبَّ قوالبه من طين مزجه بتبن القمح وتركه للعفن ثم بدأ في صب قوالبه وتركها تحت شمس يوليو تحترق ثلاث ليال

وفى الرابعة أحضر فنطاس مازوت أسود وصبَّه على القوالب وأشعل فيها النار، ظل الدخان الأسود يتصاعد منها أسبوعًا ثم شرع في رفع القواعد من البيت والناس في المناشي يتفرجون ويعجبون، نظر الجافي إلى صميدة الذي أغرقه العرق وسال حتى غطى وجهه وعينيه، ودون أن يسأله جرَّه الجافي إلى داخل البيت ومسح بطرف التلفيحة الصوف غبارًا كثيرًا التصق بجلد وجهه الذي تكسوه خيوط التجاعيد، قبض قبضة بيده ونثرها في الهواء وبدأ يتحدث إلى فراغ هائل، كان صميدة الغابي قد شعر بثقل على صدره وراحت ضلوعه تصعد وتهبط وهو يتابع حركات الجافي، كان يرى الغبار يتساقط عليه من سقف البيت وأصوات عيدان البوص وهي تتكسّر كأن أحدًا يمسكها ويضغط عليها بقوة، سرسوب من دقيق أبيض هبط من السقف على وجه صميدة، شعر بقشعريرة وانتفض، رأى الجافي يحملق في الهواء، أخذ حفنة من روث البهائم المختلط بالتبن ونثرها في الهواء، لم تسقط على الأرض، بقاياها ظلت عالقة في الهواء أمام عيني الجافي التي انفتحتا وجحظتا كأن هناك قوة تمسكها، حملق صميدة لثوانٍ كأنه نسي جاموسته التي ضاعت، تابع الجافي لثوانٍ، غاب عن الدنيا لثوانٍ، اندفع يتابع حركات الجافي دون إرادة منه، كأنه مسلوب الإرادة- هكذا حكى لزوجته هداية- قال لها.. إنه غاب عن الدنيا لعدة ثوانٍ كأنه غرق في "بطس" المناشي الغربي الذي لا ينزله إلا الماهرين في السباحة، غرق في البطس ونطق بالشهادتين ثم عاد إلى الحياة على كف الجافي وهي تهزه من كتفه.. انتفض ورجع.

هذه أول مرة يدخل فيها بيت الجافي رغم أنه سمع كثيرًا عن كراماته لكنه أبدًا لم يذهب إليه ولم يستعن به مثل كثيرين من أهل المناشي، بعضهم يذهب إليه ليسأله في كل نازلة تلم به ولا يستطيع فقير بسيط مثله أن يدفع نازلة كتلك التي هبطت على رأسه الليلة.. ضاعت الجاموسة وكان

حبلها بين أصابع كفه يقبض عليها بقوة، كيف أفلت هذا الحبل من يده؟! لم يكن بيده حيلة، وحين أشار عليه فرج نحيته بأن يذهب إلى الشيخ الجافي ليرشده عن مكانها رفض وكاد يحلف بالطلاق، ولما نظر إلى هداية ورآها حركت رأسها على الفور بعلامة الموافقة، هبطت السكينة على قلبه المتردد ونزل هذه المرة عند إرادة هداية التي باست على قدمه وقبَّلت ظهر يده وبطنها وهي تستعطفه كي يستعين بالجافي من أجل عودة الجاموسة الشاردة التي هي مصدر رزقهم، رأى دموعها التي انسابت كشلال هادر.. وصياحها، قال لها ساخرا: "لو مت الآن لن تبكى عليّ كما تبكين جاموستك الشاردة". ضحك لكنها لم تضحك، ظل واقفًا كعود بوص ناشف أمام البيت ثم قرر مرغمًا أن يذهب إلى بيت الجافي ليسأله عن مكان جاموسته.. ولم لا؟ وهناك من يأتي لبيت الجافي من كل مكان ليسألوه عن حل لمشكلاتهم، بل ومن خارج المناشي أيضًا من ضل حماره أو ضاعت منه "محفظته"، ومن فقد الأمل في الشفاء من المرض العضال الذي أربك جسده. وما حدث منذ سنوات ليست بعيدة حين صحى أهالى عزبة الأصفر على أبواق سيارة فارهة تسبقها عربة نقطة شرطة المناشي، يومها ظلت النسوة رابضات على الأسطح والأطفال التفوا حول بيت الجافي، أما العمدة فقد هرع إلى بيت الجافي ومعه "تكال" شيخ الخفراء، يومها سهر أهالى عزبة الأصفر حتى رأوا وجه الصبح يبزغ من خلف جبل الأصفر، والذى حدث يومها لم يصدقه الناس كأنه نسج حكايات الخيال التي يرويها الأسطى مفرح البرادعي.. أشهر وأمهر من يصنع برادع الحمير في المناشي كلها، حتى "بردعة" حمار العمدة فتوح الكبير، صنعها مفرح لكنه لم يحشها مثل كل البرادع من قش الأرز الناشف وإنما حشاها بالقطن وتلك كانت سابقة لم تحدث.. حتى تريح مقعدة العمدة فتوح حين يمتطى ظهر حماره الحصاوى، أعطاه العمدة

فتوح سليل بيت آل فتوح خاتمًا كان في يده إعجابًا بما صنع، ظل مفرح البرادعي محتفظا بالخاتم بعد مرور كل هذه السنوات، الناس يدخلون عليه ويسألونه رؤية خاتم كبير آل فتوح، على مصطبة دكانة مفرح التي تقع وسط الأصفر نسج من خياله حكايات عجيبة وغريبة كان يرويها لصغار المناشي وهو يوزع الحلوى عليهم، المناشي كلها تعرف الجافي وتؤمن بكراماته وقدراته، وما فعله مع أبي حكته لى أمي هداية، حكاية صميدة الغابي الذي صعد إلى الخور بعد أن أخبره الجافي أنه لا سبيل إلى عودة جاموسته لأنها ذهبت إلى صاحبها الجديد في وادي الحلفاء، صاح أبي ودق بمقبض يده على كتف الجافي وصرخ فيه: من هو صاحبها الجديد؟ أنا صاحبها.. لم أبعها لأحد، كيف تذهب هكذا؟

قرر صميدة الغابي أن يصعد الخور خلف الجاموسة، حذَّره الجافي من صعوده إلى الخور أو الاقتراب من وادي الحلفاء، زوجته هداية قبَّلت قدمه وتوسلت بكل الأقارب كي لا يذهب صميدة إلى الخور خلف الجاموسة.. لكنه صمم وعزم على الأمر، لم يكن يدري ما الذي كان ينتظره، حين عاد وأخبر هداية بكل شيء، الذي حكته أمي هداية وسمعته بنفسي كان يشيب له الولدان، صميدة الغابي شاهد هناك الأعاجيب ولم يمض وقت طويل بعد عودته من رحلة الصعود إلى الخور حتى مات.

صميدة الغابي مات وقد توارت أسرار تلك الرحلة ودفنت في صدره إلا ما استطاع أن يبوح باليسير منه لزوجته هداية، سماح كانت تصرخ في وجهي حين تسمعني أتحدث عن كنوز الخور ووادي الحلفاء. الكنوز التي أخبرنا عنها أبي ورآها بعينيه هناك في الخور وحكى عنها لزوجته هداية، ولم لا أفعلها وأصعد الخور وألمس كنوز وادي الحلفاء بكفي وأسعد أهل المناشي جميعًا وأخرجهم من الفقر الذي يعيشون فيه؟ لم لا أكمل رحلة الصعود إلى الخور؟ تلك الرحلة التي بدأها أبي صميدة الغابي منذ سنوات

بعيدة وحملت إرثها وحدي دون أهل المناشي، تلك الرحلة التي نسجت خيوطها أمي هداية حين كانت ترويها لي وأنا صغير بعدُ لا أدرك معناها ولا كنه تفاصيلها حتى تاقت نفسي لرؤية وادي الحلفاء رأي العين، ظلت كنوز الوادي أمام عيني، أشاهدها صباح مساء في الحلم واليقظة، لا تفارقني، صرخت داخلي حتى امتلأ صدري بتلك الكلمات.. هل أفعلها؟ سأقطع طريق الخور على قدمي مثلما قطعته مرات عديدة في أحلامي التي تنتهي دائمًا بكابوس واحد، كابوس يطبق على أنفاسي ويجعل صدري يعلو ويهبط ويشهق كأني سأموت، أصرخ صراخًا مكتومًا، صراخًا قادمًا من قاع بئر، بئر عميقة تمتلئ بماء راكد، ماء آسن، مثلما هو حال البئر التي تقع شرق المناشي، المدق الذي يوصل إليها اختفت معالمه، امتلأ المدق بالأشواك المدببة. أشعر كأننى مثل نخلات عطية التي هجرها الناس فصار بلحها طعامًا للعفاريت في وادي الحلفاء، العفاريت تأكل رامخها الأخضر، لا أحد يصل إلى نخلات عطية، الجافي رآه الناس في المناشي وهو يصعد الخور وحده، تعلم الصعود إلى الخور من أبيه الذي كان يعرف وادي الحلفاء شبرًا شبرًا.

لم يعد لي غاية بعد اليوم إلا أن تطأ قدمى وادي الحلفاء ليعلم أهل المناشي كلهم أن حريش جدير بها، إذا وصلت إلى وادي الحلفاء سأفكر مليًّا في أن أبني السور الكبير الذي يفصل بين المناشي وأرض الحلفاء وحينها لن تصل العقارب والحيات إلى بر المناشي، لن يمكنها إن بنيت السور الكبير أن تصل إلى أرض المناشي، ساعتها سيجتمع كل أهل المناشي حولي وأقول لهم أعينوني بما تستطيعون، سأبني حائطا من زبد الحديد والنحاس وأصبّه عند حافة الخور، لن تستطيع الجان نقبه، لن تستطيع اختراق ذلك السور مهما حاولت، سأحبس عفاريت الخور خلفه ولن ينفذ أي فرخ منهم إلى بر المناشي، أعرف أن العمدة فتوح سيعارض بناء هذا

الجدار لأنه يحلم مثل أجداده بالوصول إلى أرض الحلفاء ويستولي على طريق الخور والمصرف الكبير ويضم تلك الأرض إلى أملاكه، حاول كثيرًا مع رجال الحكومة أن تحضر اللودر لكي يزيل وادي الحلفاء لكن الناس في المناشي خرجت عن بكرة أبيها في مشهد عظيم حين قال لهم الشيخ عرنيش الجافي: إنه ما إن يدخل اللودر أرض الحلفاء ستنطلق العقارب والحيات إلى بيوت المناشي وستطرد أهل المناشي من منازلهم، إنها وحوش الثعابين تسكن أرض الحلفاء هو يراها بعينيه حين يصعد إلى الخور ويمر بجوار نخلات عطية، يسمع بأذنيه فحيح الأفاعى العملاقة التي يمكن لأفعى واحدة منها أن تبتلع إنسانًا كاملا، الحيات والعقارب ستندفع إلى البيوت، ستخرج الجميع ومن يقف في طريقها ستبتلعه في الحال، ستبتلع الصغار والكبار.. النساء والأطفال، ستكون هذه هي نهاية المناشي حين يفيض الماء في ترعة المناشي ويفور حتى يملأ الأودية والطرقات ويدخل البيوت وتغرق المناشي كلها، لن ينجو طفل أو عجوز ولا كلب أو بهيمة من الأنعام السائبة، سيموت التائب والعاصي، لن ينجو أحد من أفاعي الحلفاء ووحوشها الطليقة التي ستنتقم من أهل بر المناشي الذين صعدوا وادي الحلفاء، الناس سمعوا هذا فتجمهروا كل منهم يحمل فأسًا في يده أو يحمل قطعة من حديد أو منجلا أو نبّوتًا، وقفوا جميعًا صفًّا واحدًا رجالا ونساء وأطفالا، وقفوا في وجه اللودر ورجال الحكومة، العمدة الكبير حاول كثيرًا أن يقنع الناس لكن كلمات الشيخ عرنيش كانت تدوي في آذانهم، وأخيرًا انصرف اللودر وظلت أرض الحلفاء باقية، تلك العقارب والثعابين هي التي تحمي كنوز أرض الخور، لولاها لكانت الخور أرض الكلأ وأرض النور مستباحة لكل قدم غريبة، حتى الآن لا أحد يصل إليها إلا عرنيش الجافي، يصعد أرض الحلفاء ومن قبله أبوه.

آه لو أستطيع أن أطرد الشياطين من أرض الحلفاء ساعتها ستكون كنوزها ملكا لى وأصبح أغنى أهل المناشي.. حتى العمدة فتوح.

أمى حكت لى كثيرًا عن كنوز أرض الحلفاء، قالت لى إن أبي صميدة الغابى قد أسر لها بكلمات وعتها وحفظتها حتى صبتها في أذنى صغيرًا: "لن يصل إليها إلا الموعود، الموعود فقط من تصل قدمه إلى أرض المناشي". أبي كان يصف لها ذلك الموعود الذي يصل إلى كنوز أرض الحلفاء: "شاب قوي فتي من أهل المناشي يكون وحيد أبويه وشجاعًا ويحب أجمل بنت في المناشي". سماح هي أجمل بنت في المناشي.. تشبه ندى الصباح وبواكير العنب وحلاوة الرطب، سماح هي كنزي الذي أبحث عنه، رأيتها في أحلامي بعينيها السوداوتين مثل فحم عدلات، وجهها مثل شمس صباح شتوى دافئ، لكن سماح يريدها فتوح العمدة الصغير لنفسه، من يقف في وجه فتوح بماله وقوته. مهما فعل العمدة فتوح لن يستطيع أبدًا صدِّي عن بيت العجوز وابنته سماح، حريش الذي عاشوا معه وعرفوا طيبته في المناشي كلها سوف يصبح شخصًا آخر، سيصعد الخور، لن يخيفه شيء أبدًا، لماذا يكون المال والسلطة لبيت فتوح وحدهم.. ألسنا مثلهم من أبناء المناشي؟! هل يحق لمثلي أن يتبوأ مقعد العمدية وأصير عمدة مثل فتوح الصغير؟ حين قلت ذلك لسماح تحت العنباية وضعت كفها على فمى وشهقت، قالت يومها وهي ترتجف: "لا أريدك أن تقول مثل هذا الكلام. لماذا تملؤني بالخوف وتجعلني لا أنام طوال الليل؟ لا أحد يتحدث بتلك اللهجة في بر المناشي.

"فتوح لا يعرف أن حريش العائد لكي يلقى سماح وحتمًا سيقف في وجهه". حتمًا سأمتلك القوة التي تجعلني أقف في وجه فتوح مهما حاول حتى لو استعان بالشيخ عرنيش الجافي وفرخه اللاهي الذي أطلقه على أهل المناشي لمن يدفع. بر المناشي امتلأ بحديث الناس عن ذلك الجني

الذي يسكن وادي الحلفاء ويخرج للناس بعد صلاة المغرب وانطفاء الشمس، يلهو في بر المناشي وبين بيوتها الغارقة في السبات،كان الفرخ اللاهي يعبث بأعواد البوص فيخيف الصغار في فراشهم بينما يقول الكبار في الصباح وهم يتجاذبون الحوار على ظهور الدواب: "إنها ريح شديدة هبت على بر المناشي في ليلة أمس وحركت أعواد البوص وأخافت الصغار في فراشهم". وحين ينفخ الفرخ في نار الكانون تهرع النسوة خائفات، الفرخ الذي يمتلك عينين غائرتين في سواد ونار وكفه تشبه جريد النخل وقدمه الوحيده التي تنتهي بقحف جريد ناشف وحيد مثل حافر جحش بيت هلال.. هكذا وصفه عامر السعدني، قال إنه شاهده عند البئر المهجور حين انطلق خلف بقرته التي قطعت حبلها وانطلقت سائبة تعدو سعيدة بحريتها فلا يستطيع أحد من جيران عامر من الفلاحين الإمساك بها، وهي تعبر فوق الجسور وتقفز بأربع على وديان النخل حتى حكَّت بقرونها سور جنينة بيت فتوح وهزته هزًّا، وارتجفت البهائم المربوطة في أوتاد حديد وحاولت خلعها لكن الأوتاد صمدت وقاومت فزع البهائم، وبقيت البهائم على حالها في إذعان بعد أن نكست قرونها وهي تتابع بقرة عامر التي انطلقت فرحة بحريتها التي حصلت عليها، عامر ظل يعدو خلفها حتى انقطع نفسه، كان يريدها أن تعود إلى حبل الوتد وحين رآها تقف بجوار البئر لم يشك عامر- كما حكى لي- لم يشك لحظة واحدة أن ذلك من فعل الفرخ اللاهي وأنه هو الذي هز الحبل المربوط في رقبتها وحرك الوتد في موضعه حتى يكون من السهل خلعه ولم يكن بوسع البقرة أبدًا أن تفك قيدها أو أن تقطع الحبل المجدول جيدًا من الليف، الذي يستطيع أن يفعل ذلك هو الملعون، قطع الحبل وتركها تعدو مجنونة في الأراضي الواسعة، ثم أنهى عامر الحكاية بقوله: "ما الذي دفع بقرته أن تتجه ناحية البئر المهجورة؟! البئر التي لم تصل

إليها قدم منذ سنوات وسنوات، البقرة لم تعرف طريق البئر ولم تسر فيه من قبل، البقرة كانت تسير كحيوان مجنون، هذا فعل فرخ الجان، لكنني قلت له إن هذه البقرة ربما أصابها الجنون مثلما حدث مع جحش بيت الرديني، لا أحد يعرف لماذا تصرف الجحش هكذا مع صاحبه؟! حين هم فجأة ورفس صاحبه بقوة، صاحبه حامد الرديني الذي ذهبنا به إلى مستشفى البندر لنعالجه من قطع في بطنه من رفسة الجحش القوية، حتى حامد نفسه لم يعرف سببًا لفعلة الجحش التي فاجأته ولم يكن أبدًا يتوقع من جحش صغير مثله تربى في بيته وأكل من يده طويلا ولم يؤذه يومًا، والغريب الذي لا يصدق أن الجحش بعد أن جرح بطن حامد الرديني وشاهد الدم ينزل من بطن صاحبه، ظل مضربًا عن الطعام والشراب حتى عاد صاحبه من البندر سليمًا، فلما رآه الجحش كأنه ابتسم وفرح وهو يشم رائحته ويحرك ذيله فرحًا بعودته سليمًا ولو تأخر حامد الرديني بضعة أيام لكان جحشه مات من الحزن. سفيرة ابنة حامد الرديني قالت.. إنها كانت واقفة وشاهدت كيف تحرك الجحش الصغير فجأة ورفع حافره وشج بطن أبيها. تحرك عن غير قصد ودون إرادة منه ورفع حافره بقوة فارتطمت ببطن أبيها ورأت نافورة الدم تندفع بقوة من بطنه فأغمى عليها في الحال بعد أن صرخت وتجمع الأهالي على صراخها في فدان البرسيم بجوار النخلات، ربما كانت فعلته عن غير قصد.. وربما رأى شيئًا أهاجه وجعله يفعل هذا دون إرادة منه، حين أراد أحد الفلاحين أن يفتك بالجحش وينهال عليه ضربًا بعصا جريد كانت في يده، أشار له حامد الرديني ليكف عن ضربه، ترك الجحش سائبًا في الغيط، لم يكن يقترب من طعام أو شراب حتى عاد حامد الرديني من مستشفى البندر.. كأنه ابتسم.

الجافي لا يؤمن بصعود الغابي إلى الخور، الجافي يروج للناس هذا الحديث الباطل، يقول.. إنه شاهد صميدة وهو يعرج على جسر بطس المناشي وهناك كان عليه أن يولي وجهه شطر الجانب الأيمن من مدق الخور الوعر حيث كان عليه أن يتشبث بأفرع السنط وحين قبض على أحد فروعها صرخ من شدة الألم حين انغرس السنط في بطن كفه المتعلق بالفرع، تألم وصرخ وحين رأى سرسوب الدم يسيل جذب يده سريعًا، الريح الشديدة حملت ذيل جلبابه لأعلى وكادت عورته تنكشف، تراجع واختبأ خلف "ودية" نخل صغيرة، همّ أن يتراجع فظهر له على حقيقته، كانت المرة الأولى التي يظهر فيها على هيئته كما خلقه الله، رأسه هناك في السماء تتدلى كعنقود أحمر، همهم ولم يستطع النطق، كانت الشمس قد شارفت على المغيب والظلام يلف المدق، نظر إليه وتراجع، كان يفرك السنط بيده، ظل يتراجع صميدة الغابي على قدميه ويديه، يزحف خائفًا يرتجف حتى دخلت جسده الحمى وظل يهذى حتى عاد إلى بيته لا ينطق، وحين صحا من غيبته وهو راقد في فراش هداية وقد ضربت جسده الحمى من شدة الإعياء والخوف الذي تلبَّسه، توهَّم أنه صعد الخور.

كانت هذه رواية الجافي التي يحكيها لكل من رآه من أهل المناشي.. بينما قال أبي وأقسم لزوجته هداية إنه صعد فعلا ورأى ما رأى، وكانت هداية أول من صدقه في بر المناشي كله. أعرف أنه سيأتي اليوم وتكونين يا سماح أول من يصدقني في بر المناشي كله.

(3)
تأديب العاصي

سأبدأ الآن خطتي لتأديب اللاهي الذي ظن أن عرنيش بن الجافي قد وهن العظم منه واشتعل رأسه شيبًا وأنني لا طاقة لي على تأديبه، لابد من تأديب العاصي، لن تأخذني به شفقة ولا رحمة، هذا صبي يلهو، المناشي تحتاج إلى رجل قوي مثل الجافي الذي كان يسير في ركابه كل رجال السلطة في المناشي، يخطبون وده، وإذا سكت على لهو هذا الصبي سيجعلني أضحوكة أهل المناشي كلهم، نسي الفرخ ماذا فعل الجافي مع أبيه حين عصاه؟! شاهدت عقابه بنفسي ورأيته جسدًا مصلوبًا على حائط الخزان.. جسدًا خاويًا ينفخ فيه الريح، يتأوه مثل حرباء الوادي، يفقأ عينيه بيده ويظل منتصبًا أيامًا طويلة على جدار الخزان أسفل الأرض، يعض يديه من الألم ويطلب من الجافي العفو، أشفقت عليه يومها وحين لمس أبي بي رقة، صرخ داخلي وقال يحذرني:

- هؤلاء ملاعين، لا تأخذك بهم شفقة ولا رحمة، إياك والضعف، حتى تكون قويًّا.. لا تضعف.

حان الوقت، سأجرب قوتي ورباطة جأشي، لن أكون هينًا لينًا كما تظنني راجية، تصمني بضعف القوة وقلة الحيلة، ستراني راجية رجلا آخر غير عرنيش الجافي الذي تعرفه وتصرخ في وجهه كلما دعوتها وأومأت لها، وركبت رأسي كطفل بليد وجلست على حافة السرير أتقيأ رغبتى أمامها وأتجشأ عناء الفعل وأطرد خيالها، راجية التي زوجني إياها الجافي واختارها لى من بنات الغجر اللائي يجبن الموالد والأعراس، لم أفهم رغبته التي وصلت إلى حد إبعادي وطردي أيامًا من المناشي لأنني ركبت رأسي

كشيطان مريد وقد أشهرت السبابة في وجهه معلنًا رفضي، عشت في أرض التيه ليالٍ صعبة، أدركت أن أصعب شيء على النفس هو الغربة، تلك الأرض لها سحرها حيث تبزغ النبتة، وأدركت الآن حجم مأساة بيت خروشة حين تركوا بيوتهم ورحلوا عن بر المناشي بعد أن تغلب عليهم بيت آل فتوح. حان وقت التأديب، ليس أمامى إلا هذا، لم يترك لى خيارًا آخر، الآن سأصلب الفرخ العاصي على حائط الخزان وسيسمع صراخه أهل الأراضين جميعًا من فوقها ومن تحتها، أهبط الدرج بهدوء وفى يدى الجردل، نزلت إلى الخزان ورأيت كل شيء في موضعه منذ أن رحل أبي، سنوات مرت ولم أهبط تلك الدرجات التي توصلك إلى الخزان أسفل البيت حيث الظلمة الحالكة تحتل الجدران وتحيط بها من كل جانب، ولا تكاد ترى كفك إن أخرجتها من جيبك، هنا سيكون مكان التأديب، حملت الماء الساخن وسبع حصوات منتقاة من أرض الخور، عظمات ثلاثة من قبر مهجور وماء أحمر تركه أبي لي كي يضمن لي الطاعة الدائمة وقال وهو يعطينى تلك الزجاجة مبحلقًا في عيني بقوة:

- بقطرات قليلة تضمن طاعة هؤلاء الملاعين.

فرغت الآن من سكب المياه الساخنة على العظمات بعد أن طحنتها جيدًا في هون راجية النحاس، تغير لون الماء الصافي وأصبح معكرًا وشممت رائحة نفَّاذة عبَّأت الخزان، راجية مازالت نائمة، لا تشعر بي وأنا أقوم لمهمتي، لم أخبرها بشيء، راجية لديها فضول النساء جميعًا، فضولها سيجعلها تسير خلفي وتفسد خطتي التي يجب أن تنفذ سرًّا ولا يعلم بها أحد حتى جوان نفسه، لن يعلم إلا في الوقت المناسب، حين يجد نفسه معلقًا على حائط الخزان، يبكي ويتوسل لي أن أتركه يخرج من الخزان، لكن مهما حاول، سأجعله هنا أيامًا معدودات، تنخلع فيها نفسه ويرتجف كصبار ناشف مسته ريح عاتية، لن أطلق سراحه حتى

أضمن ولاءه وأضمن طاعته لي، مسحت عرقًا بلل جبهتي، البقاء هنا في الخزان صعب، صعب أن تبقى هنا لساعات، الجو هنا لا يطاق والحرارة مرتفعة تشوي الأجساد، تحسست بكفي أبحث عن كفن الجافي الذي ظل سليمًا حتى الآن رغم أن عظمات جسده قد بليت، تفتت وانطحنت مع تراب الخزان، لكن الكفن الذي يرقد فيه أبي منذ سنوات في الخزان مازال كما هو، لم يتغير سوى لونه فقط، القماش الدبلان قد اصفر قليلا ولفة قماش التيل مازالت كما هي على حالها، الجافي يرقد بجوارى ممددًا في كفنه، سيشهد معي الآن تأديب "جوان" كما شهدت معه تأديب أبيه من قبل، هو الذي أوصانى أن أدفنه هنا في الخزان، قال لى إنه يرغب أن يدفن في المكان الذي أحبه، لا يريد أن يدفن في مقابر عزبة الأصفر ولا مقابر المناشي البعيدة، الجافي كان يخشى ما سيفعله الملاعين بجسده بعد موته لذا فقد فكر وقرر أن يدفن هنا في الخزان، قال لي: "لن يستطيع أحد منهم أن يقترب من الخزان وسيحلقون بعيدًا يتمنون اللحظة التي تموت فيها لكى يقطعوا أجسادنا ويمزقونا قطعًا صغيرة ويلقونها على جبل الأصفر أو غذاء للحيات والأفاعي في وادي الحلفاء، لكن إن دفنت هنا في الخزان فلن يمكنهم الوصول إلى هنا أبدًا، هذا أبعد مكان يمكنهم أن يلجأوا إليه برغبتهم".

هنا مكان العقاب والتأديب، هنا سيحضر عما قريب جوان العاصي وسيركع أمامى طالبًا عفوي ولن أعفو حتى أنزع منه تلك الرغبة المكنونة في داخله، الرغبة التي تخلق مع كل كائن حي، رغبة المعصية والتمرد.. يظن نفسه خُلق مختارًا.. ملك إرادته، لا يوجد مخلوق له إرادة.. الإرادة لى وحدي، كيف عاقب الله الشيطان على تمرده وجحوده، هو فعل معي هذا.. جعلنى أصعد إلى الخور وأعبر وادي الحلفاء وحدي مرات ثلاثة ولا أجده، من يظن نفسه هذا الملعون؟! هذا الصغير الذي يأبى الطاعة

والإذعان ولا يخشاني، حين رحل أبوه، تركه لنا وقال: "جوان مكاني درِّبه، سيحل محلي، لا تتركه لقومي سيؤذونه بسبب عصياني، لا تتركه وحده في وادي الحلفاء، اسمح له بالعبور كي يتردد على المناشي، الوحدة قاتلة في الخور". الجافي رق لدموعه وقد أخطأ أبي، نعم أخطأ الجافي كما أقر هو بنفسه حين سمح لجوان صغيرًا أن ينزل إلى المناشي، صار يتردد علينا كثيرًا، لم يكن يقدِّر أبي أنه سيأخذ من طباعنا وهو الذي جبل على الطاعة، ولكنه منذ أن حمله أبى الجافي صغيرًا وأطعمه من رامخ نخلات عطية وسقاه من البئر المهجورة ودعك جسده الضعيف بسم الحيات وتركه في حجرى، ظللت أطعمه وأسقيه كما وصَّاني أبي سنوات وسنوات، كان يدخل علينا في كل الأوقات دون استئذان ويترك وادي الحلفاء، الجافي هو الذي سمح له بترك الوادي،كان ذلك وبالا علينا، ها هو صار يفعل أفعاله الصبيانية تلك، وبعد كل هذا التعب في تربيته يأتي الآن ويعصيني، الأعجب أنه من كثرة تردده على المناشي أخذ يقلدنا ويفعل بعض التصرفات التي لا تليق به، كنت في البداية أضحك حين أشاهده يحاول أن يقلدني ويرتدي مرة جلبابي ويضع العمامة الحمراء على رأسه، وفى بعض الأحيان ضبطته يمسك بالجوزة ويريد أن يدخن المعسل، ضحكت وجرى من أمامى خائفًا حين رآني. حتى عندما أدركت خطورة تردده على المناشي، حرَّمت عليه النزول إلى هنا وقطعت عليه العهد ومنعته من النزول زمنًا إلا بإذن مني، لكنه أحذ يلح عليّ ويتذلل لي، يرجوني أن أدعه يهبط بر المناشي وسمحت له، لكنني اشترطت عليه أن يستأذن مني قبل أن يهبط إلى البر ويترك الوادي، كنت أعرف أنه يخالف أوامري كثيرًا ويعصاني، وما حدث منذ أيام حين كان ذاهبًا لمأمورية أرسلته لينجزها، أمرته أن يصرف سماح عن موعدها عند عنباية الحاج مفتاح حيث كانت تواعد حريش الغابي، لكن الملعون تأخر بعد أن انشغل عن مهمته في مراقبة عراك حامد الرديني مع ابنته

سفيرة.. في فدان البرسيم، رق قلبه كصبي صغير لسفيرة، حين رآها تتوجع من عصاة أبيها القاسية وهي تهبط على جسدها، حكى لي يومها كيف بكى طويلا حين شاهد سفيرة تبكي وتتوجع، والحكاية أن الملعون كان راكبًا نخلة الرديني، يراقب البنت سفيرة ابنة حامد الرديني وحين ضاق أبوها من تصرفاتها، البنت كانت تخرق أعراف المناشي، رآها أبوها ذات يوم وقد حملت إليه الطعام وانطلقت إلى فدان البرسيم تغني وتقذف ماء الترعة الغربية بالحصاة ثم تتوقف قليلا حتى تهدأ الدوائر التي تتسع على سطح المياه وتصفو، حينها ترى وجهها يطل من ماء الترعة الصافي، كانت سفيرة تطلق شعرها الأسود على ظهرها وتضع الكحل في عينيها، حينها أطل وجهها كوجه عباد الشمس المنير في ماء الترعة، استشاط حامد الرديني غضبًا حين رآها قادمة من بعيد تغني وترقص فترقص الأمواج الهادئة في الترعة الغربية، كان الملعون يركب النخلة الرابضة على طرف غيط البرسيم وشاهد من فوق النخلة حامد الرديني وهو يجري خلفها بعصا غليظة وأوسعها ضربًا حين رآها تنظر في ماء الترعة تمشط شعرها وتنظر إلى دوران صدرها البازغ في لطف يغري الناظرين، البنت كانت جميلة مثل قطعة بلور، حامد الرديني جرى خلفها في فدان البرسيم وانطلقت تعدو أمامه خائفة من عصاته، حمل الهواء طرف جلبابها القطيفة.. حينها تسمر جوان مكانه على النخلة بعد أن رأى جسد سفيرة بازغا أمامه كطبق البنور في حقل البرسيم، وقعت أمامه بالضبط وحاولت أن تحتمى بنخلة جوان، شعر جوان بقشعريرة وهي تقع بجوار قدمه، صرخت سفيرة من وجع ارتطام عصاة أبيها على جسدها البض الناعم الذي تلون بلون البرسيم الأخضر، تأخر يومها الملعون، نسي مهمته التي أرسلته من أجلها أو أنسته سفيرة مهمته، كيف لقلبه أن ينبض وهو بلا قلب؟ كيف رق لمشهد سفيرة في غيط البرسيم وتعلقت عيناه الغائرتان

في نار موقدة حتى نزفت دموعها الساخنة الملتهبة، الملعون رق قلبه ونسي اللقاء الذي أمرته أن يذهب ليفسده، كان مُهمًّا أن يفسد ذلك اللقاء، لكنه انشغل عن لقاء سماح بحريش والذي حدث أن سماح التقت حريش ولم تفلح مهمتي في تفريقهما في ذلك اليوم مما أصابني بالضيق منه، لكن مشهد البنت سفيرة وهي غارقة في فدان البرسيم ظل عالقًا في رأس المجنون، ظل شاردًا بضعة أيام وجاءني فرحًا، قال لي يومها إن جحش بيت الرديني رفس صاحبه وشج بطنه، الناس كلها في المناشي تعرف أن ما حدث كان عجيبًا وغريبًا، أخذ يسألني كثيرًا عن سفيرة ابنة حامد، ويسألني كل مرة ألتقيه هناك في الخور أسئلة عجيبة حتى إنه سألني مرة في خبث:

- هل يمكنني أن أفعل مثلما يفعل حريش مع سماح تحت عنباية الحاج مفتاح؟

أدركت على الفور مقصده وضحكت مما قال، وقلت ماذا يريد هذا المجنون إنه مازال صغيرًا على هذا، ضايقته ضحكاتي التي ملأت الخور كله وأيقظت الحيات من سباتها، علا فحيحها، أعرف أن الحيات تخيفه وقلت: "طبعا البنت سفيرة جميلة.. شغلتك وقبضت على قلبك لكنك بلا قلب، كيف ترق لها وأنت بلا قلب؟! ياه ماذا فعلت البنت الجميلة بجوان؟! حركت الجامد وأدمت الساكن وألهبت الفاتر، لا يخلو الأمر من سحر وأي سحر تملكه سفيرة غير الجمال الذي أسر الملعون، رحت ألومه وأسبه وأسب أباه، قلت له شغلتك سفيرة، سكبت في جسدك النار حتى عشقتها، العشق يؤلم الرجال ويجعلهم يرضخون، ذهبت خلفها ونسيت مهمتك، أغوتك سفيرة فعصيت أمري ولم تطع قولي، شغلتك البنت عن عملك، أخذت تتابع المشهد الذي راق لك وتأخرت عن مهمتك التي أرسلتك من أجلها، ولم تفلح في صد سماح عن لقاء حريش، ولو أفلحت في مهمتك

وعبثت بفرع العنباية قبل أن يحضر حريش لأخفتها وانصرفت على الفور ولم تنتظر حريش الغابي حتى يحضر ويفعلان ما يفعلان، لو أنك أطلقت صفيرك في الهواء لخافت البنت سماح وارتعدت وهربت سريعًا ولكان العمدة فتوح أغدق علينا من الخيرات، العمدة فتوح هو الذي استدعانى بعد المغرب وطلب مني أن أفرِّق بين حريش وسماح، فتوح يريد سماح له، يعجبه دلالها ورقتها، رأيت ولعه بالبنت سماح، هل تتذكر يا جوان سماح؟ هل تتذكر العجوز.. إنه أبو سماح، المناشي كلها لا تنسى العجوز والحكايات التي يرويها الناس عن قوته حين استعان به العمدة فتوح الكبير كى يقف في وجه عائلة خروشة التي ظلت تنازعه أمر المناشي، طبعًا أنت تعرف أنني لا أصدق ما يرويه أهل المناشي عنه وما كانت تحكيه زوجته من القصة الشهيرة، ربما نسج هو هذه الحكاية ليخيف الناس منه، لكنني أعرف أن الجافي أنكرها.. بل وسخر من مروجيها، إذ لا يعقل أبدًا أن تكون قد وقعت بالمرة، طبعًا أنت كنت صغيرًا، لكنني رأيت الجافي يضحك عند بيت العمدة لما سمع هذه الحكاية، أما حريش فأنت تعرفه جيدًا.. إنه ابن صميدة الغابي، وصميدة الغابي هو الوحيد الذي صعد إلى الخور برغم أن أبى الجافي حذَّره من تلك الفعلة لكنه صمم، كان يريد لجاموسته أن تعود بأي ثمن.. حتى زوجته هداية توسلت إليه، بكت عند قدميه.. رجته ألا يصعد، لكنه صعد وعاد وحكى لزوجته ما رآه ومات بعدها بأيام، أبوك يا جوان حكى للجافي ما جرى مع صميدة الغابي. لكن ما يزعجني الآن هو أن حريش يفكر أن يصعد إلى الخور وحده ويفعل ما فعل أبوه من قبل، كان يجب عليك يا جوان أن تسمع إلى أوامري، كان يجب عليك أن تمنعه من لقاء سماح عند عنباية الحاج مفتاح، ستقول لي وما علاقة سماح برغبة حريش في الصعود حتى نصرفها عنه، إنها رغبة العمدة فتوح، ولأنك صغير لن تفهم أن الرجل حين يعشق امرأة جميلة

مثل سماح سيفعل أي شيء من أجل الحصول عليها حتى ولو كان أمرًا مستحيلا مثل صعود الخور، لذلك كان عليك أن تصرفه عنها بدلا من انشغالك بمتابعة سفيرة بعين عاشق، العشق ليس لنا يا ملعون، لا يجب أن تحن قلوبنا أو تتحرك، حركة القلوب ضعف ونحن يجب أن نظل أقوياء في مواجهة أهل المناشي، ننزل أقدارنا التي ندبرها بليل عليهم دون أن نسأل عن السبب. ما فعلته حين سألت لماذا نصرف حريش عن سماح هو عين التمرد والعصيان، لهذا أنت تستحق التأديب هنا في الخزان، لأنك تريد سفيرة وسفيرة ليست لك، أنت تعرف من يريد سفيرة وحامد الرديني أيضًا يعرف، لكنه سيرفض تلك الزيجة، هو يرغب أن تكون سفيرة لرجل من عائلة كبيرة مثله، لن يتركها في كف هذا المخبول وأنت لا تدرى أن المرأة الجميلة تأخذك إلى حتفك، انظر ماذا فعلت سماح بحريش؟! يريد أن يصعد إلى الخور من أجلها.. حتمًا سيلقى حتفه، سيموت حين تطأ قدمه أرض الحلفاء مثل صميدة الغابي، هذا مصير محتوم، لن يُسمح لقدم غيري أن تطأ أرض الخور، أرض الكنوز والحيات، ومرعي الذي تحبه سفيرة لن يستطيع أن يقترب منها ولن يستطيع أبدًا مهما فعل أن يدخل بيت حامد الرديني، أعرف أنك يا ملعون وبسبب عشقك للبنت دخلت بيت حامد دون أن يشعر بك أحد وتسللت إلى حجرتها ورأيت وجهها الطيب حين تنام، كنت تدخلها من باب الحلم وتغريها بك مرات عديدة، يالك من ملعون، تستعمل حيلك التي علمتك إياها، تدخل أحلام البنت سفيرة كل ليلة، كنت تهرب مني وأظل أبحث عنك حتى عرفت ما تفعله بعيدًا عني، كنت تختبئ في جسد سفيرة تلوك رطبها وتمسح ضفائرها بكفك، يومًا ما سأحكى لك ما جرى للملاك الذي علَّقه الله بين السماء والأرض وحرَّم عليه صعود السماء حتى تقوم قيامة الأشياء ويفصل الله في أمره، الملاك الذي تحرك قلبه مثلك حين استمتعت بالبنت ومرعي

البرادعي خائف يجلس على سطح بيته، يختبئ بين حزم أعواد القطن التي رصتها أمه على سطح بيتها لتوقد بها فرنها ساعة الخبيز، يتطلع مرعي المختبئ بين حزم أعواد القطن الناشف إلى سطح بيت الرديني، ينتظر صعود سفيرة إليه وهي تحمل إبريق الماء وطعام الدجاجات لتطعمها، يراقبها والطيور تتجمع حولها حين تراها ويدها تنثر بذور الذرة والقمح حولها فتنشغل الدجاجات بالتقاطها، يتابعها مرعي وهي تجلس على طرف السطح، تفك ضفائرها وتمشط شعرها الأسود الذي يحمله الهواء بعيدًا وتغنى غناء عذبًا لم تسمعه أذن من قبل، تردد أغنية حلوة عن الوحش الذي يطارد البنت الجميلة، يتدفق الدم في عروق مرعي ويقف منتصبًا أمامها، تراه سفيرة.. ترتبك وتحمل خجلها وتنزل على درجات السلم وهي ترمق مرعي بنظرة ثم تصيح على دجاجاتها وتهبط في خفة، مرعي بن مفرح يحلم مثل كل الرجال أن تكون له واحدة مثل سفيرة، لكن انظر إلى حالي حين أردت أن أتزوج، ذهبت إلى بيت مجاور الشحات الغجري وطلبت يد راجية، كانت رغبة أبي وأذعنت لها بعد عودتي من أرض التيه، راجية طبعًا تعرفها.. هي التي قلبت حالي إلى جحيم، هي حية في صورة امرأة، مثيلاتها في التاريخ كثيرات ربما امرأة مثلها تسود بعض صفحات التاريخ، واحدة منهن تغير ميزان العالم، ولو كان بجوار بعض السفاحين القتلة امرأة جميلة طيبة مثل سفيرة لتغير الحال ولم يُرق دم كثير، النساء هن من يحكمن لا الرجال، الرجال فقط يحققن لهن ما يحلمن به، لو لانت النساء لتغير وجه الأرض، لا تتهكم أيها المعون.. طبعًا راجية مسئوولة عن شر كثير فعلته في المناشي، هل تعرف أنها فرحت كثيرا لأنني أرسلتك لتخيف سماح عند العنباية وتصرفها عن لقاء حريش الغابي. بعد قليل سأراك هنا مصلوبًا تتمنى الموت وتسألني الغفران، أعرف أنك مازالت صغيرًا على العقاب، لكنني ضقت

ذرعًا بتصرفاتك الصبيانية، ليتك تعرف أن مهمتنا كبيرة في هذه الحياة، ليس مهمتنا فقط- كما تظن- أن ننصاع لرغبات الحاكم، ولكننا ننجز أشياء لن يفهما الناس إلا في حينها، الليلة ستهب ريح عاتية على المناشي وسترتع الأفاعى في الحلفاء، ستذكر هذا اليوم جيدًا يا جوان، حين تقترب من شمس اللهب ستعرف أنك خلقت لطاعتي ولم تخلق لتعصي، لأول مرة ستذوق طعم الألم وستعرف كيف يبكي الرجال؟ هل رأيت دموع حريش العاشق حين سقطت على وجه سماح؟ كان حريش يسكب النار في كفها، نار العشق التي أكلت قلبه، يعرف أنه سيواجه قوة لا قبل له بها حين يشعر الرجل بالهزيمة يموت واقفًا. الرجل لا يتحمل أن ينكسر مثل الفلق الذي يحمل سقف البيت إن انكسر وقع السقف، حتما سينكسر حريش، سماح ستذهب إلى العمدة الصغير الذي يريدها، هذا الولد العاشق سينهار حتمًا، لا تظن أن قلبي جامد لا يتحرك لكنه قانون الخلق، ليس بوسعي أبدًا أن أسير عكس القانون الحاكم. ربما يتحرك قلبي وأشفق على حريش من هول ما سيلاقي جراء عشقه، العمدة هو صاحب المناشي، يملك القوة والمال ويعرف كبراء البندر، من يكون حريش؟! مجرد ولد يعبث بشعر سماح ويقول لها "أحبك"، وماذا يصنع العشق مع العبد الضعيف الذي لا يملك من أمره شيئًا، ولو كان يريد ثمنًا، العمدة سيعطيه الثمن نصف فدان في أرض قبلي، نصف فدان سيعطيها العمدة ليسكن قلب حريش ويهدأ، لا يمكن له أن يرفض عرضًا كهذا، سماح تساوي نصف فدان من الأرض العفية، لو كنت مكانه لوافقت على الفور ولكن من يطلب راجية، راجية لا تساوي عندى قيراطًا.. بل ربع قيراط، هذا الولد حريش لا يريد أن يفهم أن العشق وهم، وهم لا حقيقة، الحقيقة يمكننا أن نراها جميعًا، أما حركات القلوب في الصدر فلا يراها أحد حتى صاحبها، ربما يشعر بها لكنها تبقى وهمًا، حتى أنت ربما تكون وهمًا. لكن النصف

فدان من الأرض العفية حقيقة، حريش ولد مجنون، لا يعرف أن قصص الحب عبر التاريخ كلها تنتهي بالفشل.. وتنتهي بالموت أو الخيانة، وإلا لماذا يحب الفقراء الأغنياء طمعًا في المال؟! لو كان حبًّا نقيًّا خالصًا لأحب الفقراء الفقراء، أما الأغنياء فلا يحبون إلا مالهم فقط، العمدة لا يريد قلب سماح ولكنه يريد جسدها وسيشتريه بماله، ياه.. كيف يكون جسد سماح؟! البنت التي شغلت المناشي كلها حتى رأس العمدة امتلأ بها، كيف وجد حريش يدها وهو يحيطها بيديه؟ كيف وجد عينيها وهما نائمتان في حضنه؟ حريش الذي قبض بكفه على خصرها عند عنباية مفتاح ومر بشفتيه على شفتيها الغارقتين في الأحمر، هل يساوي قضم هاتين الشفتين نصف فدان من الأرض العفية؟ جوان الصبي اللاهي جاءنى ذات يوم وقال إنه شاهدهما متعانقين في صمت طويل، لم يقولا كلمة واحدة، الصمت خيم على مشهد العناق، جوان لم يفهم أن العناق يغني عن الكلام، ما معنى الكلام بين جسدين متلاصقين؟ قال جوان يومها إنه مل من المشهد وانصرف عائدًا يفرك يديه من الزهق. ويومها قلت ليتنى كنت مكانك أيها اللاهي لبقيت أتابعهما لأعرف كيف ينتهي عناق عاشقين؟ وها أنت ذقت العشق وعرفت طعم أن تدخل جسد امرأة بعد أن دخلت جسد سفيرة وبقيت فيه، كيف وجدت جسدها يا ملعون؟! كيف ذقت حلاوته؟! أيها الصبي اللاهي سوف تنال عقابك الآن بعد أن تُصلب أمامي على حائط الخزان، سوف أجعلك تبوح لي بكل ما شعرت به هناك وأنت تجري في دمها.. وأنت تمر من بين أصابعها.. وأنت تلعق أناملها، سوف أذيقك أشد العزاب، أنا الوحيد في أرض المناشي القادر على إيذائك، لا تصدق ما يرويه الناس في المناشي عن والد سماح خفير العمدة القوى الذي ذاعت سيرته بين الناس، كان ذلك منذ زمن بعيد، بعيد جدًا، كنت صغيرًا حين روى لى الجافي وكان جالسًا على مصطبة البيت يمد قدمه

وينظر إلى وادي الحلفاء البعيد كأنه يرى شيئًا، أتاه الولد الغاوي مخطوف الملامح فزعًا، لم الجافي قدميه وحكى له الغاوي ما يردده الناس في عزبة الأصفر، ضحك الجافي، ضحكاته هزت حزم البوص المرصوصة فوق السطح، تركت لعبتي في طين المسقاة التي تمر أمام البيت وجلست جوار العجوز الذي قعد متربعًا أمام الجافي، قال له الجافي يومها كلاما قليل الأدب، لم أسمع أبي يقوله من قبل وأخرج صوتًا من فمه يشبه شخير النائمين وقال: "ماذا يقول أولاد الأفاعي في عزبة الأصفر، هل ذهبت عقولهم؟! العجوز خفير العمدة قبض على جني الخور وربطه في نخلة بيت الرديني بحرى البلد". زعق أبي وصرخ ووضع المداس في رجليه وسار ناحية بيت العمدة والولد الغاوي يجرى في ركابه، حاولت أن أمسك بطرف جلبابه لأسير معه لكنه جذبه من يدي ولم يلتفت وراءه. هل تعرف أيها اللاهي من هو العجوز خفير العمدة الذي تردد المناشي كلها اسمه وتتحاكى بقوته وظلت سيرته حتى الآن على ألسنة الناس التي تروي أن العجوز ربط جني الخور في نخلة الرديني؟ وظل هكذا مربوطا، كان الجني قد اعترض طريقه وحاول إخافته لكن العجوز أقوى خفراء العمدة سيطر عليه ولف الحبل حول رقبته وظل الجني يعافر معه لكنه استطاع أن يربطه في نخلة الرديني، هل تعرف أيها اللاهي أن العجوز هو والد سماح، هل تفهم؟ سماح ابنة العجوز أقوى خفراء العمدة، لذا فقد حق العقاب عليك، لأنك تركتها تلهو مع الولد حريش تحت عنباية مفتاح، هل خفت منها؟ ظننتها تستطيع أن تفعل معك ما فعله أبوها العجوز مع جني الخور فلم تقترب منها، يالك من تافه أحمق، إنها حكاية خيالية لم تحدث، الناس في المناشي لا يحبونكم لذا فهم يفرحون بذلك البطل الذي استطاع أن ينتصر على واحد منكم، لن يستطيع أحد غيرى أن يذيقك العذاب، وحدى من يستطيع فعل ذلك، أما عن عقابك فلن تناله إلا على يدي حينما تجد

نفسك مصلوبًا على حائط الخزان، وما يرويه الناس عن العجوز وقوته حين هم وربط جني الخور في نخلة بيت الرديني ولولا استعطاف الجني له وبكاؤه بين يديه لظل الجني مربوطا حتى الصباح بحبل العجوز وأطرافه تتدلى، ورآه الناس رأي العين والتف الأولاد الصغار ورموه بالحصى.

(4)
سماح قمر المناشي

حريش الشمس التي تدخل شبَّاكي في ظهيرة أمشير، تملأ حجرتى بالدفء، وتمر بسلاسلها الذهبية على ستائر سريري، تدخل جسدي، زوجني نفسك وادخل جسدي من أى باب شئت، امرح بين أعضائي حرًّا كبرق الليل حين يخطف روحى ولا أجد سواك تمنحني الأمان، أنت بر أمان لي، امنحني برد شتائك كي يرتعش جسمي وهو يلامس جسدك الدافئ، احملنى على زراعيك إلى أي أرض تريد، أنا ملك يمينك. سأدخلك إلى ملكوتي برضائي وأمنحك عرشًا تجلس فيه بمفردك، تطأ قدمك العارية أرضي، هيا احملني على كفيك إلى أي أرض جديدة، أرض طاهرة لم يدخلها عاصٍ أو مذنب، أرض للأبرياء فقط، أرض تكون بعيدة عن بر المناشي وأهلها.

هكذا قلت له.. يجب أن نرحل عن المناشي، المناشي كلها ملك فتوح أين سنهرب؟! هل سنهرب إلى أرض الخور ووادي الحلفاء كما تريد؟! نعيش مع الأفاعى السامة، نأكل من رامخ نخلات عطية مثلما يفعل الجان، المناشي تقع بعيدًا عن يد الحكومة في البندر، المناشي هناك على الأطراف والحكومة لا تنشغل بالأطراف ولا بأهلها ولا بحياة الناس فيها، تتركنا لمثل فتوح وبيت خروشة يأكلان خير المناشي ويتركان الفتات لأهلها، أعرف أن حريش يفكر مثل أبيه صميدة الغابي حين صعد الخور ثم عاد ولم يعش غير ليالٍ ثلاثة حكى فيها لزوجته هداية وهو نائم في حضنها عن كنوز الخور وما رآه هناك، وأمك هداية أخذت تملأ أذنيك بتلك الحكايات، نسجت لك الحكايات عن كنوز الخور، قالت إنها سمعتها من أبيك صميدة الغابي، لكن من يدريك؟ ربما كانت كل حكاياتها التي حشتها في

صدرك من نسج خيالها، جعلتك لا ترى غير الخور، حريش الغابي يريد أن يدخل أرض الخور ليحمل كنوزها إلى البسطاء، وأنا أمامك، لماذا تغفل عن كنوزي التي منحتك إياها، منحتها لك وحدك، جسدًا طريًّا وملكوتًا لم يزره غيرك، ملكوت أبدي لا يمنحه غير الآلهة لمن أخلصوا العبادة لهم وأنا منحتك ملكوتي، وجسدي هو الخلاص لك من ذنبك وأنت تعصانى وتخرج عن طوعي وتبتغى لك أرضًا سواي وتبتغي لنفسك لذة من دوني وأنا لذتك ومنتهاك، إمبراطوريتك التي لا تغرب عنها شمس ولا يغيب عنها قمر، استخلصتك لنفسي ونفخت فيك من لهيبي كي تخرج من رمادك وتصير لي وحدي، لماذا تيمم وجهك شطر بيوت المناشي وسكانها؟

قلت له.. لن نستطيع أن نعيش هنا، العمدة فتوح لن يتركني لك، يظن أنه يملكنا كما يملك أرض المناشي وبهائمها التي ورثها عن أبيه، قل له وأنت تترجل عن حصانك "متى استعبدتم الناس...؟". لكن يجب أن تعرف أن عرابي لم يقل هذا للخديو، لا تصدق روايات التاريخ التي علمونا إياها في المدرسة، العمدة فتوح لم يشفع لى عنده أبي العجوز الذي خدمه طول عمره حتى مات، كان أشجع خفرائه وأقواهم، هو من ربط الجني في نخلة بيت الرديني وجعله يصيح ويبكي حتى لا يتركه مربوطا فيراه الناس في الصباح وهو مربوط بنخلة الرديني فيسخرون منه ويقذفه الأولاد بالحجارة، ولولا أن رق قلب أبي له ولدموعه لتركه للناس يلهون به، لم يشفع لى عند العمدة فتوح موت أبي في سبيل الدفاع عنه، ولم يتركني لك، الأغنياء يريدون كل شيء، كل شيء، هل تفهم؟ لن يدعني أهنأ بأصابعي وهي تمرح في كفك، هو لا يريد روح سماح، بل يريد جسدها عاريا أمامه يلتهمه كخنزير نجس يضع فمه في فضلات الأطعمة، جسدي الذي استعصى عليه.. هذا ما جعله أكثر ضراوة، لماذا ضحى أبي العجوز بنفسه من أجل فتوح؟ كان مسكينًا لا يفهم حين فعل هذا، الحكام لا

يدينون بالولاء لأتباعهم مهما فعلوا، المكافأة التي أسداها العمدة فتوح لأهل بيت العجوز أن عشنا في بيته، عشنا في بيت فتوح كالخدم.. مجرد أغنام تأكل وتشرب، ليس لأحد قيمة في بيت العمدة، العمدة وحده يملك كل شيء وما عداه مجرد حشائش شيطانية لا جدوى من وجودها في الغيط، خدمناهم مثل عبيد وحين شاء طردنا السيد من بيته، كنت صغيرة حين حملتني أمي على كتفها وذهبت بي إلى الضياع، مضى وقت طويل وأحداث كثيرة حتى انتقلنا لنعيش في هذا البيت الصغير، أمي كانت مثل كل فقراء المناشي تخوض حياة صعبة من أجل العيش، كنت صغيرة لم أر أبي جيدًا لكني رأيت جفاء العمدة وصلفه، راح أبي وبقيت سيرته بين الناس، ظلت حكايته عالقة بأذهان أهل المناشي كلها، حتى الآن لا تمل أمي من ترديدها حين تجتمع مع نسوان المناشي في أية مناسبة سواء كانت فرحًا أو حزنًا، وما إن تذكر إحداهن لها سيرة زوجها العجوز حتى يطلبن منها بإلحاح أن تروي لهن ما جرى ليلتها مع العجوز حين خرج له جني الخور وكانت المناشي كلها نائمة.. حتى البهائم غفت في ذرائبها حينها اعترض طريق العجوز نفر من الجن..

العجوز هو خفير العمدة فتوح، لكن ما يروى عن قوته ورباطة جأشه حكايات طويلة، فقد خاض مع العمدة حروبًا طاحنة قد اندلعت في البر بين عائلة فتوح وعائلة خروشة. انتهت بانتصار عائلة فتوح وكان العجوز هو بطل الحكايات الطويلة التي يسهر عليها أهل عزبة الأصفر يروون كيف كان يمسك العجوز بالرجل من بني خروشة فيشقه نصفين؟! ويقولون عن سر قوته إنه شرب من ماء الترعة الغربية وكان ماؤها نائمًا، ماء الترع لا ينام في العام كله إلا مرة واحدة وسعيد الحظ من يغترف غرفة بيده وتصبح له قوة عظيمة ويمتلك عِرق الصبا، والبعض يقولون إأنه دخل أرض الخور خلسة دون أن يراه أحد وظل هناك يومًا كاملا

شرب فيه من لبن الأفاعي، أما أمي فتحكي أن سر قوة العجوز أنه نام في البئر المهجورة حين كان يطارده بعض رجال بني خروشة في سنوات العراك الأولى بأرض المناشي قبل أن يستتب الأمر لآل فتوح، وقضى ليلة كاملة في البئر وهناك شرب من مائه الذي أصبح غورًا وذهب إلى باطن الأرض، والبعض يقولون إنه بئر لا يشرب منها إلا الجان ويطلقون عليها بئر الجنيَّة، تلك الجنيَّة التي تخرج في أرض المناشي على هيئة امرأة غاية في الجمال والحسن بعد صلاة العشاء، تنتظر واحدًا من فلاحي عزبة الأصفر عائدًا بمفرده مجهدًا من فلاحة الأرض وتظهر أمامه وهو يغفو فوق دابته السائرة في رحلة عودتها اليومية إلى البيت، الدابة تعرف طريقها جيدًا فلا داعي لهشها يمينًا أو يسارًا، ويمكن للرجل أن يأخذ غفوة على ظهرها وحينها تعترض الجنية طريق الدابة فيلمحها الرجل بطرف عينه المتيقظ، يعلو صوت الدابة وتبركس من خشيتها وينزل الرجل عن ظهرها ويتركها لطريق العودة وحينها تسحره بجمالها فيهم الرجل خلفها مسلوب اللب وهي تتلوى أمامه بمفاتنها التي تأخذ العقل، والرجل ما بين النوم واليقظة يشهق وقد رآها تزيح الشال القطيفة المورد عن كتفيها وزراعيها، وحين تشمر قميصها عن إحدى ساقيها يقع الرجل لا محالة في الغواية، يتبعها مرغمًا من حقل إلى حقل يدوس الجسور ويخوض في طين الأرض وخلفها يمضى غير عابئ بشيء قط، وما إن تصل قدمه عند حافة البئر المهجورة حتى تظهر له على هيئتها الحقيقية وتلقي الرجل في البئر ويستقر في قاعه حيث تمص دمه العقارب والحيات وتنفث في أوردته سمها الناقع وتسمع صرخاته أهل الأراضين السبع ويشتد ألمه حتى يسمع اسغاثته سكان السموات السبع الطباق، ترتجف بيوت المناشي من صرخاته التي تخرق أذن الصغار والكبار ولا يبيت أحد في المناشي إلا وأقسم ثلاثًا أنه سمع وشعر بتلك الرجفة حتى إن البهائم في زرائبها تموج في رغامها وتبدأ

عراكها وعيونها زائغة، هناك حكايات كثيرة تملأ أفواه الناس في بر المناشي عن كثيرين اختفوا في قاع ذلك البئر البعيدة المهجورة، سيقولون إن الجافي وراء ما يحدث هناك عند البئر المهجورة، وحكايات العمدة الصغير مع الجافي ومن بعده ابنه عرنيش كثيرة، ومن يرفض طلبًا للعمدة مصيره معلوم، وآخرها ذلك الرجل البسيط أبو بصيصة الذي ذهب إلى العمدة واقتحم دوَّاره دون استئذان وكان يريد أن يسأله عن بقرته التي أراد العمدة أن يضمها إلى بقره بعدما سمع الناس في بر المناشي يعجبون بتلك البقرة ويقولون إن بقرة "أبو بصيصة" أجمل بقرة في بر المناشي صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وعيونها واسعة، ولما سمع العمدة فتوح حديث الناس عن بقرة أبي بصيصة التي ليس له غيرها، أمر شيخ خفرائه "تكال" أن يضمها إلى بقر العمدة، وفعل "تكال" ما أمهر به، وعندما انتهي أبو بصيصة من ري قراريطه ونظر ناحية مربد البقرة ولم يجدها صرخ بأعلى صوته ولم يجبه أحد في بر المناشي. أبو بصيصة جن جنونه وذهب واقتحم دوَّار العمدية حتى وقف بين يدي فتوح نفسه، وقد علم أن العمدة فتوح وراء ما حدث لأنه طلبها منه كي يضمها إلى بقره ورفض حينها أبو بصيصة، يومها قال للعمدة كلامًا لم يقله أحد من قبله، قال له بصوت خرق أذن العمدة ومَن حواليه مِن رجاله:

- تسرق بقرتي مِن أرضي يا عمدة البر؟ ليس لي من الدنيا إلا هذه البقرة؛ لا نعاج ولا بهائم، وقد سألتني إياها ورفضت فلماذا تسرقها وأنت رب المناشي وحاميها؟!

أطرق العمدة قليلا وهز رأسه ونفخ في نار الجوزة ثم أشار لتكال بخاتمه المرصع بالذهب الخالص، لم يمر على تلك الحادثة سوى أيام وكانت المناشي كلها ترتجف على صراخ أبي بصيصة وهو يقع في البئر المهجورة.. بئر الجنية، الجميع يعرفون أن الشيخ عرنيش الجافي مستعد لأن يسخر

جان الخور كلها من أجل خدمة العمدة فتوح، والجن مسخر لخدمة الشيخ عرنيش، وقد ترك الجافي جن الخور ووادي الحلفاء أمانة في يد ابنه عرنيش، لكن عرنيش ليس كالجافي.

ليتك تفهم يا حريش وتحملني إلى البندر نعيش هناك سعداء بعيدًا عن يد فتوح التي تحوط على المناشي، في أول مرة رأيتك عند عنباية الحاج مفتاح ولمست أصابعك أطراف أناملي شعرت أن زلزالا يدخلني، أرتع في فجر سماء مشرقة وصباح جديد بطعم الحليب الصافي، تلك العنباية شهدت لقاءات عديدة جمعتنا سويًّا وضمتنا فروعها الخضراء ورأينا حنوها علينا حين هبطت عناقيدها على أكتافنا، ولا أنساك وأنت تقطف واحدة من حبات العنب وتمررها على شفتيك تقبلها ثم تدفعها بحنو نحو شفتي، ألمسها برفق فتدفعها بإصبعك داخل فمي، صدقني لم أذق عنبًا بطعم تلك الحبات التي أطعمتني إياها. البسطاء هم ضحايا الأطماع الكبيرة للأغنياء، أبي مات من أجل العمدة فتوح وأبوك صميدة الغابي مات لأنه فقد جاموسته الوحيدة التي كانت تعينه على حياته البسيطة، الغنى قتل أبي العجوز والفقر قتل أباك صميدة الغابي. فتوح لن يترك جسدي الذي يشتهيه لك، جسدي يشتهيك أنت، لن يدعنا ننام على سرير واحد، وعدك بنصف فدان ووعدنى بقيراط من الذهب الخالص، لماذا يساومنا الأغنياء على مشاعرنا؟! ما الذي يدفعهم ليقتلوا أحلامنا حتى ولو كانت صغيرة، نحن لا ننازعهم فيما يملكون ولا نشتهي ما في أيديهم، لماذا يضايقهم أن نمتلك شيئًا حتى ولو كان جسدًا شهيًّا؟! لماذا يمدون أيديهم في أطباقنا وهي خاوية كما ترى يا حريش وأمامهم سفرة الطعام الشهية الغنية بالأطعمة؟! لماذا لا يتركني فتوح لك؟! لست سلعة ليدفع لك ثمنها نصف فدان من الأرض العفية.. ثمنًا لجسد سماح وسماح لن تعطى جسدها إلا لمن تريده، أعرف أن فتوح يشتهيني ويمد عينيه كلما مررت أمامه، تكاد

عيناه تلمسان جسدي، أنخلع من داخلي حين أرى نظراته العدائية لجسد تحداه وامتنع عليه، لو كان العجوز حيًّا ما استطاع أو تجرأ على ما فعل معي، العجوز الذي وقف في ظهره ونصره على بني خروشة، ليس هناك أثمان يدفعها الحكام، الثمن يدفعه الضعفاء. ليتك تفهم يا حريش أننى امرأة لا أصلح إلا لك، خلقت من أجلك، دعنا نهرب إلى البندر، نهرب إلى حياة أخرى، نتعرف على أناس آخرين لا يسرقوننا في وضح النهار، سيأتي الصبح على المناشي وسماح ليست به،كم أكره أرض المناشي التي تمنعني عمَّن أحب، ليتك لا تتردد، سنغادر هذه الأرض لنهزم فتوح ونهزم عرنيش الجافي ونهزم خوفنا من الخور ووادي الحلفاء، لا تكن حالما يا حريش، لن يدعك أحد في المناشي تقترب من حلمك، تحلم أن تدخل أرض الخور وتحمل كنوزها إلى البسطاء في المناشي، لكن هؤلاء البسطاء لا يحتاجون إلى كنوز، هم يحتاجون أن يمتلكوا إرادتهم.. ألا يخافوا، كلهم يشاهدون فتوح وهو يتردد على بيتي، يطمع أن أخرج معه كامرأة زانية، لكن أحدًا منهم لن يتحرك ويقف في وجه فتوح، الفقر جعلهم أغبياء لا يفكرون إلا في طعام اليوم. الواحد منهم سيقع على بطنه من الضحك إن قلت له إننى لا أريد قيراط الذهب وسيسعل أحدهم بشدة حتى يكاد يفطس ويموت إن هو عرف أنك سترفض نصف فدان من أرض العمدة العفية لتتركنى له، ماذا ستعطينا الأرض ونحن بلا مشاعر وبلا قلوب؟! اسمع، لا سبيل أمامنا سوى الرحيل عن هذا المكان، لنرحل إلى البندر، هناك سنحيا على راحتنا، يجب أن نفعل ذلك سريًعا. فتوح بالأمس ذهب إلى بيت عرنيش الجافي.. طبعًا تعرف عرنيش وماذا سيفعل، إنه يمتلك جان الخور، سيسوقهم علينا، لن يدعنا كما نحن، ربما يغلق قلبك من ناحيتي أو ربما يجعلك تراني امرأة دميمة، تعرف أن عرنيش الجافي يفعل ذلك من أجل قروش العمدة، سيسخِّر له جان الخور، لن تأخذه بنا رحمة

أو شفقة، فكرت أن أذهب إليه أقبِّل يده وقدمه لكي لا يفعل.. لكنني أعرف عرنيش، لن تجدي توسلاتي إليه، وما قيمة التوسلات والدموع أمام جنيهات فتوح؟ جنيهات فتوح مثل السحر الذي يصنعه عرنيش، تفتح له كل الأبواب المغلقة، هل تذكر حين حضرت الحكومة من البندر ومعها اللودر الكبير، تريد أن تدخل أرض الخور ووادي الحلفاء وتعطي هذه الأرض العفية البكر للعمدة فتوح، ولولا خوف أهل المناشي من حيات وأفاعي الخور ما خرجوا في ذلك اليوم العظيم ووقفوا كالسد المنيع في وجه اللودر، الحكومة لم تستطع أن تفعل شيئًا، عاد اللودر إلى مكانه، أهالي المناشي أقوياء لكنهم لا يدركون ذلك إلا لحظة الخطر ولن يكف العمدة عن التفكير في حلمه. مازال يفكر ويحلم باليوم الذي يحصل فيه على أرض الخور. الذى ضايقني أن أهل المناشي لم يخرجوا ليقفوا في وجه جشع العمدة فتوح وتسلطه، ولكنهم خرجوا خوفًا من أفاعي وادي الحلفاء، والذي أخافهم هو عرنيش الجافي، انظر إلى الولد مرعي الذي يتلوى من الألم، العشق لمس قلبه مثلنا، مسَّه كجان الخور، صار يهذى في الطرقات وهو يردد اسم سفيرة، هل تظن أن حامد الرديني سيرق قلبه للولد مرعي ويعطيه سفيرة؟ حامد الرديني يقيس مثل كل أهل المناشي كل شيء بالمال، يظن نفسه ملك المناشي لأنه يرتع في خمسة أفدنة ورثهم عن أبيه، أما مرعي فأبوه مفرح صانع برادع الحمير في البر كله، حامد الرديني "لن يضع يده في يد مرعي ابن بائع البرادع". هكذا قال لابنته سفيرة، مهما بكت البنت واستعطفته وذبلت أمامه، حامد الرديني مثله مثل كل رجال المناشي قساة القلوب حتى ولو دخل مرعي ابن صانع البرادع المدرسة وتعلم وحصل على شهادة، سيظل ابن بائع البرادع، سيظل يحمل ماضيه على كتفيه، سيظل فقره هو عمامته، حتى لو صعد المنبر وخطب في الناس بعد أن عجز الشيخ زكريا إمام جامع عزبة الأصفر

عن صعود المنبر الجمعة الماضية ووجد المصلون أنفسهم بلا إمام يخطب فيهم، بعد أن حاول الشيخ زكريا الصعود لكنه وقع على درجات المنبر فحمله الناس إلى بيته، لكن الشيخ زكريا أشار بيده للولد مرعي كي يصعد المنبر ويخطب الجمعة، تردد مرعي وهاج الناس وغضبوا، لكن الضيق اعتلا ملامح الشيخ حتى صرخ فيهم: "مروا مرعي كى يخطب فيكم". الناس امتثلوا لكلام الشيخ زكريا لما رأوه غاضبًا، أما مرعي فقد أبى وجلس بعيدًا في ركن قصي وأسند ظهره لساري المسجد وهو يترقب، لكن الشيخ زكريا نهره ليقوم سريعًا ويتم شعائر الصلاة.. وإلا كيف تتم الصلاة دون خطيب وإمام، وحين صعد مرعي وناوله مؤذن الجامع الميكروفون وكان الناس يتطلعون إليه عجبًا، بحث في رأسه، لم يجد كلمة واحدة مما تعلمه وقرأه، تنحنح والوجوه تتطلع إليه وهو لا يعرف ما يقوله الآن على هذا المنبر الشريف وأعناق الناس كلها تشرئب ناحيته، تخرج الآهات مكتومة، ماذا سيقول مرعي على منبر الجامع، لماذا اختاره الشيخ زكريا ليصعد مكانه الذي طمأنه أنها ليست المرة الأولى التي صعد فيها المنبر ليخطب. المرة الأولي كانت أصعب، كانت هناك في عزبة الحناوي حين كان بصحبة صديقه عنتر النوبي من عزبة جبريل، كان اليوم صعبًا ولم يصدق ما حدث يومها في عزبة الحناوي. مرعي تنحنح وبسمل ومدح النبي صلى الله عليه وسلم وشرع يذكر الناس في جامع الأصفر بآيات الله وناموسه في الكون، وأنه لا يقع في ملك الله إلا ما أراد الله، وعلت صيحات المصلين بالتكبير حين وصف لهم كيف كلم الله تعالى نبيه موسي على الجبل، وكيف حين تجلى على الجبل جعله دكا، كان ذلك وسط ابتسامة رضا من الشيخ زكريا الذي أصر أن يبقى بالمسجد رغم إعيائه الشديد، كان يتابع حماس مرعي في الخطابة وعيون المصلين تتابعه بشغف، طمأن الشيخ زكريا نفسه وراح في سبات عميق وقد أسند ظهره لأحد أعمدة الجامع، لا أحد يعرف

لماذا كف مرعي عن الخطابة، ربما ما فعله فتوح صرفه عن صعود المنبر الشريف، قالت لى سفيرة إن نفسه صارت عازفة، صار يتأفف من كل شيء حتى من صنعة أبيه التي جلبت له العار كما يعتقد، لو لم يكن مفرح صانعًا لبرادع الحمير ما كان هذا مصيره، قالت سفيرة وعيونها تنظر إلى شرخ قديم في أعلى الحائط الذي كان يواجهنا في غرفة نومى:

- مرعي تغير يا سماح.. لم يعد كما كان.

اتجهت ناحية التسريحة، تطلعت لوجهها الحزين في المرآه، أمسكت بإصبع روج غامق ورسمت شفتيها، حكت لى يومها كلامًا كثيرًا، يومها قصَّت لي ما جرى معها حين همَّ بها مرعي وأمسك يديها لأول مرة، قالت إنها أحست أنها عادت كطفلة وشعرت كأنها تجلس على أرجوحة أحد موالد بر المناشي حين كانت تصحبها أمها إلى الموالد، شعرت نفسها خفيفة وجسدها شفافًا ونهر من اللذة يجرى في عروقها حين لمست شفتاه لأول مرة شفتيها، كانت كأنها طائر يحلق في السماء.

هكذا قالت وهي تغمض عينيها كأنها تسترد لحظات سعادتها، ربما قالت ساعتها إنها صعدت سماوات كثيرة وهو في حضنها وأمسكت بكفها سعادة لم تذقها من قبل ولم يرد بخاطرها أبدًا، الرجال هم من يحملوننا إلى مدائن السعادة التي نحلم بها، لن ندخلها إلا بهم، بلمسة من كف حريش كنت أغرد في سمائي وأمتطي جوادًا طليقًا وأسمع الطيور وهي تغني لى وحدي، أصعد نحو القمر كأني أتحسس وجهه المضيء في السماء، مرعي هو الرجل الذي أتاها، أخرجت منديلا ومسحت الروج، تركت شفتيها عاريتين، صرخت في وجهي وهي تنهار أمامي على الأرض:

- مرعي يريد أن يرحل عن بر المناشي، سيتركنى ويرحل يا سماح، سأصبح شجرة ناشفة لا أحد يرويها، سأصبح مثل نخلات الخور لا يزورها أحد.

شعرت ساعتها أننى أسقط في البئر وحيدة، كيف حالي لو رحل حريش الغابي وتركني؟ هل أصير كما قالت سفيرة.. شجرة ناشفة لا أحد يرويها؟ أصير مثل أرض الخور ووادي الحلفاء أرض خصبة تملؤها كنوز ثمينة لكنها خاوية، مجرد فراغ بارد لا حياة فيه، أرض خراب تتسكع فيها الجن وتتسلق أشجارها، لماذا نشعر أننا غرباء في أوطاننا. حتى تلك اللحظات التي نقضيها سويًّا تحت عنباية الحاج مفتاح أشعر كأن كائنًا بعينين حمراوتين يتابعنا ويتطلع إلينا بشغف.. كائن لطيف كأنه هواء يشاركنا اللذة.

(5)
أنا سيد الأرض وما عليها

- مالك يا سيد المناشي تجلس هكذا، مقرفصًا.. وتشبك يديك كأنك في وادٍ بعيد؟
- أفكر في حلم أبي وجدِّي،كيف أحقق المستحيل؟
- أرض الخور؟
- ووادي الحلفاء.. أرض بكر عفية لم تطأها قدم بشر، حين يهبط الليل على المناشي يركبني الهم، وأحلم بصباح جديد وقدمي هناك.
- ستصل إلى هناك يا سيدنا.
- متى يا تكال.. متى؟

ليس هناك معنى أن تكون سيد هذه الأرض كلها، ثم تتعثر قدمك ولا تصل إلى الخور ووادي الحلفاء، تلك الأرض البعيدة التي حلم بها أبي وجدِّي من قبله.. أن يمتلكوا أرض الخور، ذلك الحلم الذي صار كابوسًا يرقد على صدرى، هم لا ينزاح بعد عناء نهار طويل في بوابة العمدية، أجده ينتظرني عند حافة سرير نومي، لا يدعني أغفو لحظة، لا أهنأ بطعام ولا شراب، كيف أصل يا تكال؟ أنت تعرفنى جيدًا، لو كان الأمر بيدي لركبت فرسي وخضت طريق الخور وحدي ونزلت وادي الحلفاء، لكنها أرض كما تعلم مسكونة، أرض تمرح فيها الشياطين وتسكنها الأفاعي السامة منذ أن هبط جدنا الأول منها، كان هاربًا ضائعًا تائهًا لا يعرف موضعًا لقدمه حتى عبر الترعة وشعر بالخوف وهو يهبط وحده طريق الخور، لسعته حرارة الشمس لكنه مضى، ما أقسى أن تكون وحيدًا ليس لك أنيس، حين نزل إلى بر المناشي وجدها أرضًا وعرة، أخذ يصلحها حتى

صار البر كله ملكه وحده، هل تعرف يا تكال أن جدنا الأول هو من سلالة آل بيت فتوح ونحن ورثنا ملك المناشي عن جدنا الأول، بيت خروشة ليس لهم الحق في ملك المناشي، لم يكن جدهم أول من هبط إلى هذه الأرض ولم يتعب ولم يكد حتى أحالها إلى أرض خصبة تهوي إليها أفئدة الناس، جمع الناس حوله وأقام الدوَّار الكبير الذي هو مكان العمدية الآن، بعد كل هذا الدهر أصبح لدينا الحنين إلى أرضنا الأولى التي جئنا منها، أريد أن أصل إليها، حكيت لي مرة يا تكال عن ملك رمح بفرسه وحيدًا لينازل الأعادي، لكن من يسكن أرض الخور ليسوا مثلنا، والوحيد الذي يصل إلى هناك كان الجافي ومن بعده عرنيش، عرنيش ملعون يأكل من طعام الجن هو وزوجته راجية، لا يريد أن يخلي أرض الخور، يريدها أن تبقى مرتعًا له ولأصحابه، يلهو هناك على راحته ليفعل أعماله السوداء ويربط عليها بحلفاء الوادي، وحده يمد يده إلى نخلات عطية ويتناول رامخها المر، قلت له سأعطيك ما يكفيك يا عرنيش.. ما يجعلك تعيش سعيدًا، واترك لى أرض الخور ليكتمل ملكي وأرفع من قدري وأكون سيد المناشي وما عليها بحق، اتركني أصل إلى تلك الأرض وأقطع نخلات عطية، أقطعها من جذورها، كان الجافي يقول لوالدى العمدة الكبير إن جذورها ليست في باطن الأرض ككل النخلات، إن جذورها هناك في الأراضين السبع، من يصل إلى تلك الأراضين السبع غير الجافي وابنه عرنيش، إنها محمية بجان الخور، عرنيش الجافي رفض كل عروضي السخية التي عرضتها عليه وآخرها أن أجعله شيخًا للبلد مكان عويس تكال، أعرف أنك تحب بيت فتوح وستضحي من أجلهم مثلك مثل العجوز الذي كان يعيش أيام أبي وحكايات بطولاته تملأ رؤوس الناس في المناشي وتجرى على ألسنتهم مثل سيرة الهلالى وعنترة بن شداد، أبي قال لي إنه لولا العجوز ما استتب لنا الأمر في المناشي، الحكومة في البندر كانت تتفرج طوال سنوات عراكنا مع

بيت خروشة، لم تحشر أنفها ولم تتدخل، الحكومة تمد يدها لمن يملك القوة والغلبة، حين تغلبنا على بيت خروشة وطردناهم خارج المناشي بعد عراك طويل دام سنوات وسنوات، الغرباء يريدون أن يملكوا بر المناشي ويأخذوا خيراته، بيت خروشة ليسوا منا، ليسوا من بني جلدتنا، كل ما يحلمون به أن ينزلوا هذه الأرض ويحملوا خيرها، كان العراك صعبًا.. وكادوا أن ينتصروا علينا، لكن الجافي حضر إلى جدنا ومال عليه يومها وسط رجال بيت فتوح الأشداء، قال لجدى: "ستتغلبون على بيت خروشة في بضع سنين". وتحققت نبوءة الجافي. في يوم انتصارنا جاء الجافي إلى جدنا وطلب منه أرض الخور وأن تكون له وحده من دون الناس، جدنا تعجب من مطلب الجافي، كان يرى أرض الخور ساعتها أرض البوار، تلك الأرض التي لفظت جدنا، جدنا هز رأسه للجافي بما يعني الموافقة، لكن بعض جلسائه قالوا ربما حركة رأسه هذه كانت تعني إلى حين، بعدها اختفى الجافي ولم يره أحد حتى عاد من أرض الخور على هيئته تلك ولم يعرفه الناس في بر المناشي، حين عاد إلى جدنا كانت بر المناشي كلها لنا وجاءت الحكومة ومدت يدها إلينا ووضعت السلاحليك في دوَّارنا الواسع وهنأتنا على ركوب العمدية بالغلبة والقوة، أعرف أن الأمر ذاته كانت الحكومة ستفعله مع بيت خروشة لو كانوا هم الغالبين، قلت لك.. الحكومة في البندر لا تعترف إلا بالأقوياء، ذلك القانون يسري على الجميع، الحكومة في بلادنا لا تساعد ضعيفًا ولا تمد يدها لمحتاج، ترى أن تلك الأطراف البعيدة من ملكها يجب أن يقف عليها الأقوياء حتى تضمن بقائها في البندر غير مشغولة بهموم هؤلاء المساكين الذين يسكنون أطراف البلاد بعيدين عن الحكومة التي تحب المدن الكبيرة وحياة البنادر المرفهة، ربما ترى في الأطراف المرض والجهل والفقر، هذا يتطلب منها أن تعطي، الحكومة في بلادنا لا تعطي.. بل تأخذ المكوس،

تأخذها من الفقراء، الحكومة تكره الأطراف البعيدة النائية ولا تتذكرنا إلا حين تطلب جندًا من أبناء المناشي الأقوياء، أو تطلب مالا، ودون ذلك لا تتذكرنا.. بل تتجاهل مشاكلنا، وفي أحيان كثيرة كانت نفسي تساورني أن أفعل مثل عرابي وأعلن عصيان الحكومة، مثلما أعلن عرابي عصيان الباب العالي، لكنني خشيت أن تكون نهايتي مثله.. منفيًّا غريبًا في أرض بعيدة، الحكومة لا تقدم لنا شيئًا.. ربما الفتات، وتطلب منا الطاعة وأن نلبي مطالبها رغم الجهل والمرض الذي يقرصنا هنا، وأنا مثل أجدادي أحلم بأرض الخور أن تكون لنا، أعرف أن الجافي لا يريد لقدمٍ غيره أن تطأ أرض الخور، لذلك حين استجابت الحكومة لنا وأرسلت عتادا ورجالا ولودرًا ضخمًا ذا عجلات كبيرة وكف حديد، كف تغرف من طين الأرض تقتلع الحلفاء من جذورها، كف تنزل إلى باطن الترعة وترفع ما تراكم فيها من قاذورات، كنت أريدها أن تدخل أرض الخور وتزيل وادي الحلفاء، أعرف أن جن الخور لا يستطيعون أن يقفوا في وجه لودر الحكومة وكفه القوية ذات الأصابع الحديدية، حينها لجأ الجافي إلى حيلة، حين استشعر ضعفه وقلة حيلته أمام تدبيري، صرخ الجافي في أهل البلد وألقى في قلوبهم الرعب، قال لهم بمجرد أن تدوس عجلات اللودر وادي الحلفاء ستنزعج الأفاعي والثعابين وستخرج من وادي الحلفاء ولن تجد لها مأوى غير بيوت المناشي، الفلاحون البسطاء حمل كل واحد منهم فأسه ومنجله وهرع يقف في وجه اللودر ورجال الحكومة، الجافي الملعون ملأ عقولهم بهلاوس وخرافات، من يومها ولم تعد الحكومة إلى المناشي ومهما حاولت إقناعهم بالعودة أجدهم غير مبالين بحديثي، الجافي الملعون شق عصا طاعتنا، يريد أن تكون أرض الخور له وحده، يظن أن جدنا وهبها له حين هز رأسه في مجلسه وجعلها إشارة بالموافقة، لكن جدِّي أبدًا لم يهبه تلك الأرض، يظن نفسه سيدها، بل أنا سيد هذه الأرض وما عليها، ليس بر

المناشي فقط بل ووادي الحلفاء، أنحدر من سلالة آل فتوح التي ملكت الأرض التي سكنها جدى الأول.

أجلس أعض على يدي وانظر إلى أرض الخور من بعيد، كيف يا تكال أكون سيد هذه الأرض ولا تطأ قدمى أرض الخور؟ ما أسمعه يزعجني، الولد حريش يريد أن يكون مثل أبيه صميده الغابي، يريد أن يصعد أرض الخور، هذا خطر لا يدرك مداه غيري، لو عرف أهل المناشي ما بأرض الخور ووادي الحلفاء من كنوز لقاتلونا عليها ولتحمَّلوا الصعاب من أجل دخولها، قال لي أبي العمدة فتوح الكبير قبل وفاته:

- اسمع يا بنى.. سيفتح الله عليك أرض الخور وستكون لنا، فإذا حدث ذلك سيستتب لنا الأمر قرنًا من الزمان ولن يزول ملك فتوح أبدًا.

لو صعد حريش الغابي أرض الخور وركبها-كما يحلم- سيكون خيرها لأهل المناشي ولن يكون لبيت فتوح نصيب من هذا الخير، لذا أريد من عرنيش الجافي أن يترك فرخه هناك، يأكل من رامخ نخلات عطية حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولا، وتسبق قدمي قدم حريش وأصل إلى أرض الخور قبله.

- أنت تفكر أن تأخذ منه سماح.. ابنة العجوز.

- نعم.. أنا أولى بها منه.

سماح التي تربَّت في بيت فتوح واستوى عودها واحمرت خدودها وامتلأ نهداها واستدارا كرمَّان جنينة فرغلي حتى إنها فاقت في جمالها بنات البندر، وكلما رأيتها أشتهيها وأود أن أمد يدى وأقطفها كثمرة في أول موسمها، كيف تبدو أمام العين؟ هي لا تصلح لي زوجة.. أبوها العجوز كان أحد خدمنا، لا يصح أن يختلط الحابل بالنابل.

- أنت سيد أرض المناشي بما عليها.

أعرف أنني لو أخذت سماح ستكون نهاية حريش الغابي، ربما يصير كأحد مجاذيب المناشي الذين يمرحون في شوارعها، يقذفون الأهالي بالطوب

ويجرون خلف بهائمهم التي تصاب بالذعر، أو ربما يهرب إلى البندر ولن يقعد بعد اليوم يتطلع إلى أرض الخور، المجنون يريد أن يقسِّم أرض الخور على أهل المناشي كلهم، لا يعرف أنه حتى لو فعل ذلك لن يخرجهم من فقرهم، الفقر مكتوب على أهل المناشي، لن يخرجوا منه قط، لن يخرجوا إلا في أحلامهم حين تغفو أعينهم بعد العشاء بعد عناء يوم طويل ويرون الجنيات، صدقني.. واقعهم لن يتغير، لن يصبح الفقراء أغنياء إلا في روايات وحكايات الشيخ زكريا التي تملأ زكائب من كثرتها، والبسطاء يلتفون حوله في ليالي صيف المناشي، يستمعون إلى مواعظه التي صرت أحفظها من كثرة ترديده لها على مسامع الناس في ميكرفون الجامع أو على شط ترعة المناشي حيث ينساب الماء برفق مع حكايات الشيخ زكريا، حيث يطل القمر من بين فروع شجرة السيسبان التي تقف بمفردها تفرد فروعها على جرف الترعة. دائمًا ما تنتهي حكايات الشيخ زكريا بنهايات سعيدة.. حيث الفقير يصبح غنيًّا، أو يتزوج الصياد ابنة السلطان، الحكايات تسلِّي الفلاحين البسطاء وتجعلهم ينامون سعداء، يحلمون بالمال وابنة السلطان التي وجهها كالبدر وتشبه ست الحسن، لكنهم يستيقظون على نهيق الحمير التي توقظ أصحابها فجرًا لكى تصحبهم إلى الغيط حيث الكلأ والمرعى والماء، لا شيء يتغير في المناشي غير أن مرعي البرادعي صعد المنبر اليوم مكان الشيخ زكريا، ومرعي سيرث حتمًا زكائب الشيخ زكريا التي تمتلئ بالحكايات، والذي حدث مع مرعي في عزبة الحناوي كان عجبًا والناس في بر المناشي تتناقله على ألسنتها ويقولون كيف أصبح مرعي البرادعي خطيبًا بين يوم وليلة، والفضل يرجع إلى عنتر النوبي ابن حسنية الحفَّافة الذي يتردد على البندر كثيرًا ويصحب مرعي معه، لن يتغير الناس في المناشي لأنهم لا يريدون أن تتغير المناشي، يريدونها أن تبقى على حالها فقيرة وطرقاتها ضيقة وبيوتها من الطين

ومنها دوَّار العمدية القديم الذي شيده جدنا فتوح الكبير، حين أتى البر وحيدًا وسأل الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إلى البر. أما الآن فقد شيد أبي دوَّارا آخر واسعًا بالطوب الأحمر والإسمنت، مثله بيوت بعض الأغنياء في بر المناشي، أما بقية البيوت فقصيرة ومحبوكة بالفلق والجريد، الواقع لا يتغير، انظر يا تكال إلى حريش نفسه، ذهب إلى البندر وتعلم وعمل هناك لكنه عاد في النهاية ليزرع قراريط أبيه القليلة، يريد أن ينفق على سماح من تلك القراريط، سماح التي تشبه ست الحسن في حكايات الشيخ زكريا. لكن ست الحسن تحتاج إلى حياة أخرى مثل بنات البندر، تريد أن ترتع في خير وفير حتى تحتفظ بجمالها، لا تنسى يا تكال أن بنات كثيرات من المناشي كن يفقن سماح جمالا لكنهن تحت قسوة الحياة في المناشي ينطفئ جمالهن، هل تذكر جمالات زوجة حامد الرديني.. أم سفيرة التي ورثت جمال أمها، كانت بدرًا في سماء المناشي، خطفها حامد من شباب كثيرين بعد أن دفع مهرًا لم يُدفع لبنت من بنات المناشي من قبل، دفع يومها أونصة من الذهب الخالص، دفعها لكي يحصل على جمالات، الأيام مرت وحين شاهدت جمالات منذ شهور شهقت من الصدمة ولم أصدق أنها فعلا جمالات، لقد تغيرت، أين شعرها الطويل الأسود الذي كان ينسدل حتى يصل إلى منتصف ظهرها؟! أين ضحكتها التي كانت تملأ المناشي بهجة؟! عيونها الغارقة في كحلها لم تعد كما كانت، الوجه انطفأ بريقه والشعر طوته تحت منديل أزرق.. والعينان غائرتان في حزن، كأنها تبكى حالها، لن أدع سماح يدركها نفس المصير، لن أتركها للولد حريش، في كنفي ستهفو كقطة ملونة وستسمن، الفقر كفيل بأن يأخذ شعر الجميلات وأن يضغط على عيونهن الساحرات، سيمسخ وجوههن مثلما تفعل الساحرة الشريرة في قصص الخيال التي يقرأها أطفال المناشي في مدرسة الحجَارة.

لن يصعد حريش إلى الخور ولن يحصل على سماح، نصف فدان سيكون ثمنًا كافيًا لكي يكف عن أحلامه، حريش صميدة الغابي سيفكر وسيعود إلى هنا يسألني عن النصف فدان، ربما يحلم مثل الشيخ زكريا أن ينتفض الفلاحون في وجهي، أعرف أنه يهمز ويلمز في خطبه وهو يحكي للفلاحين عن ثورة المناشي، هو يقصد ما حدث في الماضي حين خرج فلاحو المناشي في وجه لودر الحكومة ومنعوه من دخول الخور. أضحك وأنا أسند بقبضة يدى على رأس العصاة الأبنوس التي أمسك بها وأمر فأجد في عيون الفلاحين لمعة من أثر حكايات الشيخ زكريا على المنبر وهو يذكرهم بثورة الآباء.. كما كان يسميها، ربما يظن حريش الغابي أن عرنيش الجافي سيدعه يصعد الخور، سيفعل مثلما فعل أبوه الجافي حين وقف في وجه صميدة الغابي والد حريش ومنعه من الصعود، قال لأبي وكنت صغيرًا أجلس في حجره أن ما يحكيه صميدة عن رحلة صعوده إلى الخور كذب وربما أصابه مس من جان الخور، كان الجافي يؤكد لأبي ويقسم بأغلظ الأيمان أن صميدة الغابي لم يصعد بينما كان أهل المناشي يلتفون حول بيت صميدة الغابي ليستمعوا إلى حكاية صعوده إلى الخور.. وما رأى في تلك الرحلة وما سمع، لن يسمح عرنيش الجافي أن يصعد حريش إلى الخور ويحصل على سماح، ليس أمامى يا تكال غير عرنيش الجافي.. هو من سيحافظ على أرض الخور حتى أصعدها وأطأها بقدمي ويكون كل خيرها لبيت فتوح، لكن عرنيش الجافي ليس سهلا، يجب التعامل معه بحذر، كان أبي يحذر من الجافي وأنا مثل أبي لا آمن لولده عرنيش، هو مثل أبيه، لا يحب سوى نفسه، أعرف أنه في وقت ما سأكتشف خيانته، ربما يعمل من خلف ظهرى لكنني أحتاج إليه الآن.. ووقت الخلاص منه ربما اقترب، أعرف أنه الآن معتكف في الخزان.. ربما يدبر شيئًا للمناشي، الحلم الذي يراود الجافي وورَّثه لابنه عرنيش كما ورَّثه جن الخور، يجب

وضع خطة للتعامل مع عرنيش حين يخرج من الخزان، سأكون مستعدًا له، منذ أن دخل الخزان وريح صفراء تهب على المناشي من ناحية الخور ووادي الحلفاء، الطيور في السماء فزعة والقطط تموء طوال الليل، ماذا يصنع عرنيش الجافي في الخزان؟!

قلت يا تكال إنك شاهدت بعينيك قراميط ترعة المناشي وهي تتقافز في الماء والولد حسن الزغبي الخفير كان يصعد نخلته القبلية ورأى سرب غربان يطوف حول عنباية مفتاح، عرنيش يدبر أمرًا لا نعرفه يا تكال، يجب أن نستدعيه إلى الدوَّار حتى لا ينفلت الأمر من بين أيدينا ثم نتباكى على ما جرى، مثلما تفعل الحكومة دائمًا، ترى المشكلات ثم تغمض عينيها حتى تصحو على مظاهرة هنا أو هناك، أو قطع طرق أو إتلاف مبانٍ، لا تظن أنك حين تغمض عينيك أن المعضلة قد تلاشت، الذي حدث أنك لم تعد تراها وعندما تراها ستكون قد استعصت على الحل، عرنيش هو معضلتي، كما كان الجافي عند العمدة فتوح الكبير، لا نشعر أنه ينتمي للمناشي، لا يعرف أحد من أي أرض أتى، أتى من بعيد حيث لا يستطيع المرء أن يعرف، وربما هبط من السماء من ناحية أرض الخور. رآه الناس غريبًا أتى المناشي ذات صباح، لا يُرى عليه أثر السفر، دخل دوَّار جدِّي فتوح وجلس بين يديه وأخذ يسأله عن أشياء، وجدِّي يجيب حتى انتهى وقام من مقامه وقال لجدِّي: "ستغلبون بيت خروشة في بضع سنين، وستكون سيد المناشي وما عليها".

مضى ولم يعرفه أحد في بر المناشي، بنى بيته هناك بعيدًا على جرف الترعة، الجافي ليس منا، لكننا لن نستطيع أن نتخلص منه برصاصة نحاس تخرج من فوهة بندقية خفير ماهر مثل الزغبي، طبعًا بالخطأ، نعم بالخطأ، هكذا سنقول لضابط نقطة المناشي وهكذا سيكتب في تحرياته، هل تذكر واقعة مقتل طه خروشة؟ حين انحنى لكي يشرب من ترعة المناشي في يوم

شديد الحر، كان يغرف الماء البارد بيده ويدفعه إلى فمه في لهفة من شدة حر ذلك اليوم والزغبي كان يركب نخلته وبيده بندقية بروحين، حشر الطلقة في بطن البندقية وناول طه خروشة في رأسه التي انفجرت أمام عينى الزغبي إلى أشلاء، ويومها أنت شهدت يا تكال أن الزغبي كان يصلي معك العصر في بيتك، وقلت لضابط النقطة إن الزغبي صلى بك إمامًا في مندرة البيت الواسعة، وضحكت يومها ولم تخرج الضحكة من فمي خشية الضابط وخشية أبي أن يراني، انحشرت في حنجرتي، طبعًا تعرف لماذا ضحكت يومها؟! لأنك قلت إنه صلى بك إمامًا، الزغبي لم يركعها في حياته، كان يمكن بطلقة نحاس طائشة من بندقية بروحين تخرج من يد خفير مثل الزغبي تنهي حياة الجافي، كما يمكن أن تنهي حياة عرنيش ولده الذي يصعد وحده إلى أرض الخور ويعرف وادي الحلفاء ويشهد كنوز الخور، لكن من أدراني أن عرنيش لن يعرف، سينبئه جان الخور بما سيحدث له وكلما أُقدم على تلك الفعلة تتأخر قدمي وأتعثر، كأن الملعون يعرف أفكاري، وحكاية الجافي مع أبي العمدة فتوح الكبير حين انتهى الضابط من كتابة تحرياته عن مقتل طه خروشة، لمَّ محضره، أعطاه للشاويش بدر وركب فرسه الميري وعاد إلى نقطة المناشي، حضر الجافي ومال برقبته على أذن العمدة فتوح وقال:

- الرصاصة النحاس الطائشة أتت من فوق النخلة التي كان يركبها خفيرك الزغبي.

أدرك العمدة فتوح من يومها قدرات الجافي، وأن خدَّامه سيعرفون كل شيء برغم ملامح العمدة الكبير التي بدت يومها محايدة وهو يستمع إلى كلمات الجافي وهي تقع في أذنه الشمال، بدا كأنه لم يسمع شيئًا من الجافي وقد أمسك بكفه وطلب أن تعد له فنجان قهوة بنفسك يا تكال، العمدة فتوح كان يعرف أنك أفضل من يصنع فنجان قهوة في المناشي

كلها، وهو لا يطلب من شيخ البلد أن يصنع فنجان قهوة إلا إذا كان هذا الضيف كبير المقام، مثل ضابط النقطة أو رجال الحكومة حين يحضرون، أو عمدة من عمد البلاد المجاورة، أما أن يطلب أن تعد للجافي فنجان قهوة فهذا يدل على المكانة الكبيرة التي حظي بها الجافي عند العمدة الكبير، هكذا أدركت يا تكال.. وهكذا تعلمت من العمدة فتوح الكبير أن أنصت إلى الجافي ومن بعده ابنه عرنيش. أعرف أن رصاصة نحاس تساوي بضعة قروش ربما تنهي حياة عرنيش.. لكننا نريده، نعم أريده فهو الذي يحافظ الآن على أرض الخور وأنا أريد أن يبقى حراس الخور قائمين هناك حتى أتسلمها بكرًا لم يمسسها بشر وحينها تكبر عائلة فتوح وتبتلع كل من حولها من قري ومدن، يكبر ملك فتوح، حينها يمكننى يا تكال برصاصة نحاس لا تساوي سوى بضعة قروش أن أنهي حياة عرنيش وأكون قد أرحت المناشي منه، لولا أنني أعرف أنه يقبع في الخزان الآن ولن تصله كلماتى تلك، حتى لو وصلته كلماتي ومال على أذني الشمال مثلما فعل الجافي مع أبي العمدة فتوح الكبير، سأصنع صنيع أبي وأطلب منك يا تكال أن تعد له فنجان قهوة مضبوط وأتناسى ما قاله تمامًا، في السياسة لا توجد قوة لا تتآمر على قوة أخرى، تريد أن تتغلب عليها، يمكنه أن يتنصت على حديثي الآن، المهم أن تكون لديك القدرة لدحض مؤامرات الآخرين، لا أن تكتفي بالصياح والعويل مثلما تفعل دول العالم الثالث التي تتحدث عن مؤامرات الدول الكبرى عليها، هل تذكر حديث الرئيس في الراديو ليلة أمس وهو يتحدث عن دسائس الدولة الكبيرة على دولتنا، يا له من رئيس مسكين! وهل كان يظن أن الجافي أو عرنيش يتركاني في حالي دون مؤامرات على ملكي في بر المناشي؟!

المهم الآن يا تكال أن تتصنت على ما يدور برأس عرنيش، رأس عرنيش ليست فارغة كما تظن، إنها محشوة بالدسائس، هو يريد أن يحافظ على

أرض الخور، يريد أن تظل له وحده، يظن أنه بإماءة من رأس جدنا قد امتلك الخور ولن ينازعه أحد، هذا هو حريش الغابي، يريد أن يصعد إلى الخور ويحصل على كنوزه، ربما هو الذي يستحق الرصاصة النحاس التي ستنحشر في ماسورة بندقية الزغبي، الرصاصة النحاس التي تساوي بضعة قروش زهيدة وتنطلق بطريق الخطأ من فوهة بندقية بروحين لتستقر في رأس حريش ستفتته إلى أشلاء صغيرة، هي نفسها تلك الرصاصة التي تمزق فيّ الآن، حلم حريش في كنوز الخور وحلمه في جسد سماح الذي هو جسدي، أشتهيه كما أشتهي أرض الخور، لن أتركه أبدًا لأحد مهما كان، ربما تجلس مع واحد من أصدقائك يا تكال من لصوص "أبو شعبة" وبعد أن تعمِّر رأسك الفارغة تلك بدخان البانجو، ستقول لماذا لا يتزوج العمدة فتوح سماح ويريح نفسه طالما جسد البنت يتلوى أمامه، لكن ما لا تعرفه يا تكال أن ثمن زواجي من سماح سيكون ساعتها بر المناشي كله، هل سمعت قصة الملك الذي تنازل عن العرش من أجل حبيبته؟ هل تعرف لماذا؟ لأن الحب والملك لا يجتمعان؟ هو اختار الحب وترك العرش، أما أنا فلا أستطيع أن أترك ملك المناشي الذي تعب أجدادي في بنائه، أتركه لبيت خروشه من أجل قلب سماح، أنا لا أريد قلبها، أريد جسدها الشهى، لن أحتاج ساعتها أن أتخلى عن ملك المناشي، أما حريش فأمامه فرصة عظيمة لينجو حين يأتي غدًا ويخبرني أنه قبل النصف فدان، ليس أمامه سوى نصف فدان ثمنًا لقلبه.. ثمنًا لعشقه سماح، بالتأكيد هذا ثمن كبير لا تدفعه حتى الدول الكبرى لتستولي على إرادة الدول الصغري، وربما كان في انتظارها إن رفضت ما ينتظر حريش هنا في بر المناشي، مجرد رصاصة نحاس لا تساوي سوى بضعة قروش، إن غدًا لناظره قريب يا تكال، هل تظنني أنام مثلك يا تكال؟ أنام طوال الليل، أهنأ بالأحلام السعيدة، كيف أنام وأنا أعرف أن عائلة خروشة قادمة من خلف

الجبل تطلب بر المناشي، تريد أن تنتزعه منِّي؟ تضحك وأنت تشد دخان الشيشة، تظن ذلك بعيدًا، أنا أراه قريبًا، من ذاق الملك عرف حلاوته، هم سيعودون حتمًا.. إن لم يكن اليوم فغدًا، يجب أن نأخذ حذرنا ونستعد لهجوم عائلة خروشة في أى وقت من جهة الجبل، أو من ناحية الماء المالح الذي يفيض في البحيرة، سيكون لدينا أيام صعبة حتمًا ستمر على المناشي، أيام سيشيب لها الولدان. لكن هذا هو حال الملك يا تكال.. ومن يطلبه، من ذاق عرف.

(6)
رحلة الصعود

كان خروجه بعد صلاة المغرب، وقت هدأة المناشي. السكون يلف شوارعها الضيقة وأزقَّتها، الريح تصفر بين حزم أعواد القطن الناشفة المرصوصة على أسطح البيوت، الظلمة تزحف من ناحية وادي الخور، تسلم البهائم المربوطة في زرائبها عيونها المتعبة للنوم. همَّ صميدة الغابي من فراشه فجأة واستند على "سلاميته" ونظر ناحيتي:

- اسمعي يا هداية، سأصعد الخور الآن.

خبطت بكفي على صدرى وصرخت:

- أنت مجنون يا صميدة، كلما تكبر يخف عقلك.

- ليس أمامي إلا صعود الخور، الجاموسة هناك، الجافي قال لي ذلك.

- الجافي قال لك إنها ذهبت إلى صاحبها.

- أنا صاحبها وسأذهب خلفها حتى آخر الدنيا.

- أنت تعرف الخور، الخور لم يصعده أحد من المناشي وعاد إلى أهله سالما، سير الذين رحلوا على أفواه الناس.

- سأعود ومعي الجاموسة.

- لن تعود وستتركني مع حريش الصغير نمد أيدينا للغريب.

- سأعود يا هداية.. لا تخافي.

لم يستمع إلى توسلاتى، صمّ أذنه وصمت، قلت له: "أنت عمود البيت، لا تصعد إلى الخور، ربما لا تعود من هناك، حريش لا يزال رضيعًا في حجرى، تتركنا وحالنا هكذا". مضى في طريقه ولم يأبه بحديثي، وقعت كلماتى خلف ظهره، تناثرت حروفها على تراب المدق الزراعي بعد أن أشاح

بوجهه عنِّي وسار، البيت بدون صميدة الغابي مجرد حوائط، هو روح البيت، منذ أن حملنى من بيت أبي وأنا أعيش إلى جواره، أصبحت كطفلة أتعلق به منذ خروجه للأرض على حماره عند أذان الفجر وهو يجر خلفه الجاموسة، حتى يعود مع أذان المغرب متعبًا، أضع أمامه طبلية العشاء، يتناوله وعيناه مكسورتان من تعب اليوم، يغمض عينيه في فراشه، ينام كسلطان زمانه، البسطاء مثلنا، لا يمتلكون سوى المشاعر الطيبة، هي التي تجنِّبهم السقوط في بئر الجنيَّة، وتعينهم على مشقة الفقر وقسوة الأغنياء.. الذين يستأجروت أبناء المناشي للعمل في الفدادين الواسعة التي يمتلكونها، أما السلطة فلا ترحم أحدًا، عشنا أيامًا صعبة معًا، لم نكن نجد قوت يومنا، كان ذلك أيام الفتنة الكبرى التي عاشتها المناشي، حين دب الصراع بين عائلة فتوح وعائلة خروشة على من الأحق بملك بر المناشي وركوب دوَّار العمدية، الصراع دام وطال، وصل إلى كل بيت في المناشي، كان الواحد يقابل جاره، يسأله إن كان مع بيت خروشة أو بيت فتوح، فإن وجد صاحبه يخالفه الرأى وقع العراك بينهما حتى ينتهي بالدم، يومها شحَّ القوت وقلَّ الخير، لعن الله هؤلاء الكبراء، جعلونا وقود معركة لا ناقة لنا فيها ولا جمل، كان الرجل يرقص على جثة صديقه بالعصا، والجار يعتدى على حرمة جاره ولا يأمن أحد على نفسه، قليلون من اجتنبوا هذه الفتنة، كان الواحد منهم يغلق بابه على أهل بيته، يقول: "تلك فتنة لا يوجد فيها حق ولا باطل.. إنه صراع على المال والسلطة". عانى صميدة الغابي في هذه الأيام، كان يكسب قوته بالكاد، يعود سريعًا إلى البيت قبل أذان العصر حيث ينشب العراك ويكثر الهرج والمرج في المناشي من بعد المغرب، الظلام والوحشة يضربان الأرض، يحيطان بشوارع المناشي وحواريها، كان التنقل بين قرى المناشي صعبًا، قلَّ البيع والشراء، شحَّ المال حتى صارت القروش القليلة في يد أحدهم مغنمًا، عشت تلك

الأيام السوداء في بيت صميدة الغابي، كل يوم كنت أجلس عند عتبة البيت في انتظار عودة صميدة على ظهر حماره، الخوف يقتلني والقلق يستبد بي، كل يوم نسمع عن قتل وذبح في المناشي، المناشي كانت بيوتها هادئة مستكينة وخيرها وفيرًا، وبقية العزب كان أهلها يحسدوننا على خيرنا، لكن ذلك العراك أربك المناشي، وتلك الفتنة حرقت قراها وأكلت خيرها. طبعًا مثل كثيرين فكرنا في الرحيل عن المناشي، قلت ذلك لصميدة الغابي، لكنه تشبث بالأرض وبقراريطه القليلة، فضَّل البقاء هنا، عندما سمع منِّي هذا الكلام ظل على غير عادته يقظا حتى اقتربت خيوط الفجر من الشبَّاك ونفذ ضوؤها حتى لامس أصابع قدميه وهو راقد على سريره لا يتكلم، شعرت بقلقه طوال الليل، كانت رأسه تدور مثل طاحونة الشيخ التي يديرها هدَّار جسر عبد الهادي، هدَّار المياه يحدث دويًّا هائلا عند سقوط مياهه من فوق الجسر على حجر الطاحونة، في الصباح وهو يشرب كوب الحليب كعادته كل يوم نظر ناحيتي برفق، كنت أجلس تحت الجاموسة أعصر حلمة الضرع، ينزل لبنها ساخنًا في الإناء الفخار، الغابي يحب أن يشرب لبن الجاموسة وهو طازج، هكذا من ضرع الجاموسة إلى فمه، قال لي يومها: "البسطاء أمثالنا أين يرحلون يا هداية؟ في كل مكان نذهب إليه سنجد فتوح وخروشة، هذا حال الدنيا، ليست المناشي وحدها، الخوف والقلق في كل مكان على ظهر هذه الأرض، فكرت في كلامك عن الرحيل.. فكرت جيدا يا هداية، لكننا سنبقى هنا في بر المناشي.. ما يقدِّره الله لنا سيكون، لا أريد أن نحيا غرباء في أرض ليست لنا، الغربة قاتلة يا هداية". وحين قلت له إن الموت والجوع في كل مكان بالمناشي، والقتل يلاحقنا والدم يسيل حتى يملأ ترعة المناشي، الأرض بارت، لم يبق في المناشي سوى الجدب والموت، الحزن الذي يخيم على قراها، قال لي: "الموت على تراب المناشي أفضل من الموت على أرض غريبة، لا يعرفنا

فيها أحد، الغربة تساوى الموت". وحين فقد صميدة الغابي جاموسته وهو عائد من الغيط حين غفل لثوانٍ على ظهر حماره ولما أفاق أمام البيت لم يجدها، شرد طويلا، أخذ يسأل عنها الجيران والناس في المناشي، لم يعثر على مكانها، نصحه البعض أن يذهب إلى الجافي ليسأله عن الجاموسة، لكنه في البداية استنكر وغضب. مضى وقت والجاموسة غائبة عن البيت، كل ساعة يدخل إلى الزريبة، كأنه ينتظر أن يجدها في مرقدها نائمة، يخرج من الزريبة شارد الزهن، يتجه إلى شوارع المناشي، تتورم قدماه من البحث عنها، لم يترك مكانًا في بر المناشي، كان يبحث بجنون، وبعد أن أعيته السبل استسلم أخيرًا، قرَّر أن يذهب مُكرهًا إلى الجافي، قال لي: "أعيتني الحيل وضاقت بي السبل، سأذهب إلى الجافي كما يطلبون منِّي". الجافي دلَّه على طريقها، ليته ما دلَّ زوجي على الخور، صميدة ركب رأسه من ساعتها، قرَّر أن يصعد إلى الخور وحده، كأنه مُسيَّر لتلك الرحلة، رحلة الخور التي لم يقدم عليها أحد من أهل بر المناشي، لم يفكر أحد من بر المناشي كله أن يصعد، كل الناس هنا يعرفون الخطر الذي ينتظرهم في الخور حيث وادي الحلفاء الذي ترتع فيه الأفاعى وتقذف الثعابين سمومها في وجه كل من يقترب منها، لكن الحاج صميدة الغابي صمم وعقد العزم، لم يأخذ أحدًا معه، مضى في طريق الخور مستندًا على السلامية وعيناي تودعانه وقلبي يرتجف كشجرة سيسبان مسَّها ريح عاصف، ارتعشت أفرعها وظلت فزعة في مكانها وهي لا تستطيع الحراك، كنت أظن أنها آخر مرة سأراه فيها، لن يعود صميدة إلى بيته ثانية، كانت دموعى كالجمر تسقط على يديه وأنا أمسك بكفه أقبلها وأتشبث بذيل جلبابه، لكنه جذب طرف الجلباب منِّي ومضى، رأيت الحياة سوداء، نمت ليلتي وحيدة، أفترش الحزن على سريري، أضع حريش في لفته نائمًا إلى جوارى، الكوابيس ظلت تتقافز في رأسي كلما أغمضت عيني، كنت أراه

يستغيث، الأفاعي تحوطه، رأيته وهو يهوي في الأراضين السبع، رأيت صميدة الغابي يصرخ، يمد لى يده مستغيثًا، كانت حلفاء الخور تمزق جسده، ظل يستغيث بي، السنط الإفرنجي يتعلق بجلبابه يمزقه وأنا أتلوى في سريري، لا أستطيع أن أحرك يدي، كأن عليها فلق نخل كبير، مر الليل وأنا أصارع كوابيسي حتى أذان الفجر، هممت أن أتوضأ لأصلي وأدعو الله له كى يرده إلينا من الخور سالما. مرت الليالي بطيئة، تجر الساعات جرًّا كأنها حمل ثقيل، الليلة حين فردت السجادة القطيفة وكبَّرت وشرعت في الصلاة والدعاء كما كنت أفعل منذ أن صعد صميدة الغابي إلى أرض الخور، وما إن انتهيت من صلاتى حتى سمعت طرقات خفيفة على الباب، جريت سريعًا وأنا أخطو خطواتى نحو الباب، سمعت دوي سقوط ولما فتحته كأنني أرى جسدًا هزيلا قد وقع أمامي، تكوَّم على باب البيت، صرخت، تجمَّع الجيران على صراخى وحملوه معي، أدخلناه حتى أرقدناه في السرير، نام نومًا عميقًا، لم يحرك طرف إصبعه، ظل يومين بلا حراك ولا كلام، أطل عليه كل دقيقة، أنتظر أن يستيقظ، لكنه يظل مجرد جسد خواء بلا حراك، وجهه مخطوف، تيقنت ساعتها أن صميدة الغابي ربما لا يستيقظ أبدًا، ولولا النفس الذي يصعد ويخرج من صدره لظننت أنه فارق الحياة، الجسد الذي كان يمتلئ بالحياة والنشاط يقبع أمامي على سريري بلا حركة، ضعيفًا هزيلا، لم أنم طوال هذين اليومين، طلبت من جارتي إحضار الشيخ زكريا إمام جامع المناشي، ولمَّا حضر ورأى لهفتي دلف سريعًا إلى غرفة صميدة، رأيته يضع يده اليمنى على جبهته، ثم تلا الرقية الشرعية بصوت عالٍ، ثم نفخ في الإناء الذي طلب منِّي إحضاره وملئه من ماء القُلَّة، أخذ يدلك وجهه، حين رأى القلق باديًا على ملامح وجهي سدَّد لي نظرة قوية وهو يتلو الآيات، كأنه يستدعي إيمانى بالله، رفعت كفي إلى السماء، حين ختم التلاوة قال لي: "يا

هداية.. يجب أن تحمدي الله تعالى وتشكريه لأنه ردَّ إليك زوجك، أنت لا تعرفين أرض الخور.. ربما بفضل دعائك وصلاتك ردَّه إليك، لا تخافي ولا تحزني.. ما قدَّره الله تعالى سيقع". كلمات الشيخ زكريا كانت مثل شجرة وارفة، حطت السكينة على نفسي القلقة المتعبة، ما قاله الشيخ زكريا هو عين الحقيقة، لم يعد أحد من الخور ليخبرنا عما رآه هناك، عودة صميدة الغابي معجزة حقًّا. ما الذي دعاك أن تقدم على الصعود إلى الخور يا صميدة، إذا كنا فقدنا الجاموسة التي صعدت إلى صاحبها في الخور كما قال لنا الجافي، لماذا تذهب خلفها؟ هل يذهب أحد خلف الموت إن أخذ منه عزيزًا ؟! ها أنت عدت من هناك جسدًا بلا حركة، ربما بلا روح، ملقى على السرير بلا حراك وربما بلا حياة، ما الذي رأيته هناك في الخور وجعلك في تلك الحالة ترقد كحزمة أعواد بوص تركت لتنشف على سطح البيت؟! لم يعد بها رائحة خَضَار، كان حريش لا يزال نائمًا في لفَّته طفلا رضيعًا، هل قُدِّر له أن يكبر ولا يرى أباه؟ ذلك الطفل الذي رزقنا به على كبر وبعد طول عناء وانتظار، تهيأ لي أنه يشير لى بإصبعه، دعكت عيني وفركتهما سريعًا لأطمئن إلى أن ما رأيته حقيقة، وقفت على رأس السرير وفي يدى لمبة الجاز، كنت أريد التأكد من أنه فعلا حرك أصبعه أم كان ما رأيته مجرد وهم، لكننى حين قرَّبت اللمبة من جسده رأيت حركة إصبعه، زعقت فرحًا ولم أصدق نفسي.. صميدة ما يزال حيًّا، الروح تدب في جسده المتهاوي، حين أعاد تحريك إصبعه فهمت مقصده، بدا كمن يحرك جبلا بيده، هرعت إلى الكوز وملأته من ماء الزير البارد وقربته إلى فمه، بللت شفتيه بالماء، ابتلع بصعوبة جرعة صغيرة ثم راح في سبات طويل، لكنني كنت فرحة، أقفز في البيت كمجنونة وأنا أكنس المقعد البحرى وأرش المياه لأرطب الجو، صعدت إلى عشة الفراخ أبحث عن الديك الأصفر الشركسي، قلت لن أبخل به على سيد الدار، سيرم عظمه المفتت إن تناول

طبقًا من شربة الديك الشركسي، حملت السكين وعدت إلى السطح، دقائق معدودة وكنت واقفة في المطبخ سعيدة أنزع ريشه لأضعه في الماء، كنت أطمئن نفسي أن صميدة طالما حرك إصبعه وطلب الماء سيكون بخير، إنه يطلب الحياة ويتشبث بها، سأعينه على استرداد روحه التي سلبها الخور، ربما يحتاج إلى وقت كى يستفيق من سباته، لا شك أن ما رآه وشاهده في أرض الخور تشيب له الولدان، لكن ما الذي رآه في الخور وسيخبرنى به؟ عادة صميدة أن يخبرنى بكل شيء، لم يخف عنِّي شيئًا أبدًا، سيقول لى حتمًا الحقيقة مهما كانت صعبة عليه، ربما ما حدث لصميدة في الخور يكون أشد وأنكى مما جرى لنا في أيام فتنة المناشي والفوضى الكبيرة التي وقعت أيام العراك حيث لم يكن يأمن المرء على نفسه ولا جاره ولا أولاده، أيام صعبة مرت على المناشي، أتعبت الفقير والغني، الشدائد والمصائب حين تحط على البلاد لا تفرق بين كبير وصغير، لا ينجو منها أحد، الفقير لا يجد قوته والغني لا يجد ما يشتريه بماله، سوق المناشي الذي كان عامرًا أصبح فارغًا من السلع، القوت شح والموت متربص بالجميع، لا يفرِّق بين من يملك قيراطا ومن يملك الأفدنة الواسعة. حين مرضت سفيرة، بحث حامد الرديني عن فص ليمون في السوق لابنته المريضة فلم يجد، دقَّ حامد الرديني صاحب الأفدنة على باب أغنياء البر، لم يعطوه، اكتفى البعض بترديد كلمات دعاء تخرج من شفاة باردة، نادى حامد وصرخ كلما سمع أنين صغيرته في سريرها، تعب بعد أن لف ودار، لم يعطه أحد، أُغلقت كل أبواب المناشي في وجهه.. لكنه وقبيل المغرب وجد "رُمَّانة العامية" تحمل الليمون في يدها وتدحل عليه، دموعه سبقته وهو يشكرها، رُمَّانة العامية التي لا تجد قوت يومها، تنام في خص بوص، تهم وتعطي حامد الرديني صاحب الأفدنة، تعطيه الليمون لكى يسقيه لابنته سفيرة المريضة ويدعك بقشرته جبهتها الساخنة، عجبًا.. حين امتنع

أغنياء المناشي أعطت رُمَّانة العامية كل ما تملكه، الفتنة وأيام العراك التي حلت على بر المناشي أكلت الأخضر واليابس، أتت على الزرع والضرع، كنتِ تمر على البيوت ليلا لتبحث عن كوب لبن فلا تجده، صميدة شهد كل هذه النوازل، شهد العراك وظل صامدًا مثل نخل المناشي، سيمتلك من الإرادة ما يجعله قويًّا وسيعينه حتمًا على الخروج من تلك المحنة، سيستيقظ من رقدته تلك وسيحكى لى ما جرى هناك في الخور، سأعرف منه هل قابل نفرًا من الجن؟ وكيف وجد عفاريت الخور التي تتناقل حكاياتهم على أفواه الناس في بر المناشي؟ ربما لم أكن وحدى شغوفة بمعرفة تفاصيل الرحلة، الجيران أيضًا مثلي، بعضهم قالوا: "من أدرانا أن صميدة الغابي صعد الخور وشاهد وادي الحلفاء، ربما عاد قبل أن تصل قدمه هناك". وردد البعض قولهم" "طالما عاد صميدة الغابي فهو حتمًا لم يدخل أرض الخور فلو كان دخلها ما عاد". قالوا: "ربما تردد وخاف وقرر أن يعود قبل أن تطأ قدمه الخور".

لكنني حتى الآن لا أعرف إن كان صميدة قد دخل الخور أم لا، الأسئلة التي تتردد على ألسنة الزائرين طوال النهار لا أعرف إجابة عنها، أما المفاجأة والتى أصابتنى بدهشة حين حضر على ظهر حماره ومعه تكال شيخ البلد وأمامهما الخفير الزغبي وهو يضع البندقية على كتفه ليفسح الطريق لحضرة العمدة فتوح، حضر العمدة وطرق بعصاته الأبنوس باب البيت، وحين خرجت ورحبت به لم أكن أصدق أن العمدة فتوح بنفسه يزور صميدة المريض:

- كيف حال صميدة يا هداية؟

- بخير يا حضرة العمدة، منذ أن عاد من أرض الخور وهو نائم.

حينها نطق الزغبي ضاحكا:

- وهل تظنين أن زوجك طلع أرض الخور؟ إنه بالكاد يتسلق نخلة صغيرة.

لم أستطع الرد على كلام الزغبي وضحكاته التي رنت في أذني، لكن تكال شيخ البلد تنحنح ثم حرك سلاميته إلى أعلى وهو يقول لي:
- هل قال لك إنه وصل إلى أرض الخور؟ هل شاهد شيئًا هناك؟ هل حكى لك شيئا؟
- لا يا عم تكال، صميدة لم ينطق بكلمة. هو نائم. مجرد جسد ملقى على السرير لا يتحرك. منذ أن عاد من الخور لم يتكلم.
أشار العمدة فتوح لحماره وعاد ومن معه إلى الخلف، أغلقت الباب وقلت هل يُعقل.. العمدة فتوح بنفسه يزورنا ليطمئن على صميدة؟! ظل عقلي يدور كساقية بيت الزيني التي تحمل الماء لأرض الزيني المرتفعة عن الترعة، وماذا كان يعني الزغبي خفير العمدة بكلامه؟ هل كان يقصد أن صميدة لم يصل إلى أرض الخور؟! المناشي كلها انقلب حالها، لا شُغل لهم سوى الحديث عن صميدة الغابي وما جرى له في أرض الخور، شائعات كثيرة ملأت أفواه الناس هنا في البر، صميدة حتمًا صعد الخور ووجد ما جعله يصبح جسدًا خواء لا حراك فيه، ملقى على سريره لا يتكلم، ما الذي جرى هناك في الخور مع صميدة الغابي؟ لابد أن الذي جرى كان صعبًا وفوق طاقة صميدة فلا يجعله يتحرك، ما سر اهتمام العمدة فتوح بما حدث لزوجى؟ لماذا يأتي برجاله إلى بيت صميدة؟! العمدة فتوح لا يزور مريضًا في المناشي كلها، لماذا زار صميدة الغابي الليلة على رأس موكب ضم شيخ البلد تكال وخفيره الزغبي؟ طرق بابنا بعصاته الأبنوس، كان شغوفًا بمعرفة إن كان وصل صميدة إلى الخور أم لا؟ ما الذي يجعله يهتم بأمر صميدة الغابي؟ أم أنه يهتم بأمر الخور ويريد أن يعرف كل شيء عنه؟ ظل يحلم مثل أجداده أن يستولى على أرض الخور، يكون خيرها له وحده، يظن أن صميدة الغابي قد صعد الخور وحينها سينبئه بخبرها وسيكشف له عما رآه هناك، العمدة يطمع في مساعدة

صميدة المريض الذي يرقد في سريره جسدًا خواء لا حراك فيه، فتوح لم يأت من أجل صميدة وإنما جاء من أجل الخور، اللعنة على المال والسلطة التي تحوِّل البشر إلى وحوش نهمة للدم، غليظة القلب، تفتك بالضعفاء، تجعلهم مجرد درج سلم يصعدون عليه لبلوغ مآربهم التي لا تنتهي عند حد، ينتظرون أن يفيق صميده من رقاده حتى يخبرهم بما رآه في الخور، مسحت كف بطنه المبللة بالعرق وضممتها إلى صدرى وبكفي الأخرى مسحت شعر رأسه وانحنيت كى أقبِّل جبينه، اقتربت من أنفاسه الساخنة التي كانت تعلو وتهبط كأنني أول مرة أتطلع إلى ملامحه، كأنني لم ألمس وجهه من قبل، بللت كفي بماء القُلة البارد ورحت أمسح به على جبهته، حال أن يفيق سيكون الديك الشركسي جاهزًا تمامًا مع طبق الشربة التي يحبها، مسحت دموعى التي تساقطت ولم أشعر بها، رأيت حينها وجهه يستدير كالبدر في حجرى، ضممته إلى صدري ولففته بشالي الأحمر، صرخت أنادى اسمه، تربَّعت إلى جواره على السرير النحاس ورفعت جسد حريش ووضعته في حجري، وعيناه اللتان كانتا زائغتين في فراغ بعيد عادتا، رأيته ينظر إلي وهو في حجري ويبتسم، سمعت الدجاجات في عشتها فوق السطح تصيح كأنها أحسَّت بالحياة قد دبت في حوائط البيت، ثنى ركبته وضمها إلى صدره ثم فردها ثانية، أحاطني بنظرة أعرفها حين يريدني، لمعت عيناه، ذهبت لكي أحضر الديك الشركسي محمرًا وبجواره طبق الشربة، أزاح الصينية وهمس بصوت ضعيف:

- الخور.. رأيت الخور يا هداية، وطأت قدمي أرض الخور.

طلبت منه متوسلة عدم الخوض في حديث طالما هو مرهق ومتعب هكذا، أشاح عني بوجه عبوس، كأنه يرفض حديثي ويريد أن يُسكتني، راح ينظر إلى سقف الحجرة المعروشة بثلاثة عروق خشب جازورين:

- حين هبطت قدمي أرض الخور أول ما رأيته بدرًا مضيئًا في سمائها

يفرش النور في طرقها، لملمت طرف جلبابي، نظرت بعيدًا، رأيت نخلات عطية الأمهات، طلعها الذهبي، هي ليست كنخلنا يا هداية، رأيت طينها الخصب والزرع ينمو فيها أخضر نديًّا، ماؤها الذي يجري من نبعٍ صافٍ، وسكانها ليسوا مثلنا.. حين ألقيت السلام ردوا، هامت على رأسي حمامات بيضاء لم أر مثلها، وضحكات رنَّت بأذني، لمستني أجنحة بريش ناعم، قلت أريد أن أراكم، قالوا لي: "لو سكنت النخلات مكانها سترانا". فزعت في أول الأمر، انتابتني رعشة الخائف، لكن حين رأيتهم يملأون الخور بهجة ومرحًا رأيت كنوز الخور رأي العين، جواهر الثعابين العميان، لا أحد يستطيع أن يدخل الخور إلا بإذن، الخور محروس بأهله وسكانه، وما جري لي في الخور لن تصدِّقيه يا هداية ولن يصدقه أهل المناشي، حين حاولت الاقتراب أمسكتْ بجلبابي شجرة السنط الإفرنجى، لم أعد أبرح مكاني، ظللت أصرخ حتى بدت أمامى في مرعي الخور الواسع الممتد، كانت الجاموسة ترعى في هدوء، تشرب من ماء الخور الصافي وتنام تحت شجرة السيسبان التي تظل أنف الخور، زعقت عليها كي تراني وتأتيني كعادتي معها حين تفك حبلها، كنت حين أزعق عليها تقف مكانها ثم تستدير لتعود، لكن الذي رأيته في الخور لا يتحمله بشر....".

كان باديًا على زوجى صميدة الغابي الإرهاق، بعد كلماته تلك راح في سبات عميق، لكن سعادتي بحديثه كانت لا توصف، ما حكاه ليلتها كان لا يصدق حتى إننى خشيت أن يكون قد أصابه مس شيطانى من أبناء الخور، أخذت أقرأ عليه آية الكرسي حتى نام في هدوء، جلست على سطح البيت أنظر إلى السماء وأدعو الله أن يشفيه، هل يكون ما حكاه حقيقية أم مجرد خيال وترهات؟ العفاريت لعبت برأسه حين رأته وحيدًا في أرض الخور؟ صميدة قال إنه نزل وادي الحلفاء وداس الأفاعي بقدمه العاري، قدمه كانت بدون مداس، الأفاعي أحاطت به، أخذ فحيحها يعلو ويعلو

حتى صم أذنه عن السمع، الحلفاء البرية كانت أطول من الرجل، كانت مثل البوص الفارسي، لو دخل المرء قيراط بوص لن يبدو شيئًا من رأسه، حرامية المناشي حين يعودون بأجولة القمح التي استولوا عليها يدخلون البوص حتى لا يراهم أحد، حتى يحل الظلام، وحكاية الولد دعبس الحرامي ملأت بيوت المناشي حزنًا، الولد سرق كيلة ذرة ليعطيها لأمه رُمَّانة كي تطحنها وتخبزها لإخوته الجوعى، الولد حمل كيلة الذرة على ظهره من زريبة بيت فتوح، وحين شعر به خفر العمدة ظلوا يطلقون النار في الهواء، الولد خاف ودخل البوص، ظل الخفر يحوطون البوص يومين في انتظار أن يخرج دعبس وفى يده كيلة الذرة التي سرقها من زريبة العمدة فتوح، لكن الولد لم يخرج، وفى اليوم الثالث شم الخفراء رائحة كريهة هبت من البوص، أمرهم العمدة أن يدخلوا البوص ليعرفوا ما الذي جرى، نزل الخفراء على أمر عمدتهم وما كان لهم أن يعصوه أبدًا. ما رأوه ظل مشهدًا يخيف أطفال المناشي.. بل ورجالها أيضًا، حين نظر خفير العمدة الزغبي رأى التردد باديًا على رجاله، تقدم الخفراء.. وحين شاهد بعينيه ما شاهد سكن مكانه، رأى دعبس وهو ملقى على الأرض، نشبت الثعالب مخالبها في جسده ومزقته قطعًا ولم يبق منه سوى عظام جمجمة الرأس، وبعض عظام قدميه وبطنه المبقورة، كان الزغبي يحكى للعمدة فتوح ما شاهده وكفه ترتعش وعيناه زائغتان، كان ذلك المشهد هو آخر ما شاهدته رُمَّانة.. حين رأت ولدها الوحيد على تلك الهيئة، بكت حتى ابيضت عيناها من الحزن.

الناس تتحدث عن لص آخر وجدوه ملقى على ظهره وقد لدغته حية من حيات البوص السامة، وما كنت أخشاه على صميدة أن يحدث معه ما حدث مع الولد دعبس، أرض الحلفاء تملؤها الثعالب، وإن نجا من ثعالبها لن ينجو من حيات وأفاعي أرض الوادي التي هي أشد ضراوة

من مثيلاتها، الخوف والموت دائمًا يطاردان أهل المناشي حتى في نومهم، لا أحد يسلم من الشر، البسطاء هنا لا يملكون سوى الخوف من مستقبل سيأتي حتمًا بما يقلق المناشي وأهلها.

حرك إصبعه في كفي وقال: "اسمعى.. ما سأقوله لا تحكيه لأحد مهما كان، سأحكي لك ما رأيته بعيني ولمسته بكفي ويفوق الخيال، اسمعى.....".

(7)
وحدي أتجرَّع الألم

لماذا تصب الألم في جسدي ،تجعلني أصرخ في فضاء الكون، أشعر أنني أسقط كتنين يتمزق لحمه، يتهاوى في الأراضين السبع؟ لماذا تصب في جسدي عذابًا لا يطيقه مخلوق؟ صرخاتي يسمعها أهل الخور، تندفع الحيات والأفاعي إلى جحورها هربًا، تسقط رطبات نخلات عطية على الأرض وهي تتوجع، يصبح ماء البئر المهجورة غورًا، حتى غيوم السماء تتلاطم، تندفع قراميط ترعة المناشي إلى الانتحار، أنت تلقيني في فراغ هائل بحجم سبع سماوات طباق، تلقي في نفسي الرعب، تصب العذاب في جسدي وأنا أتجرعه كالمذبوح على صليب الألم، هذا عذاب لا تطيقه حيتان البحر العظيمة ولا تتحمله جبال الأرض الراسيات، ملأت جسدي شوكا، كسرت روحي داخلي، جعلتني أمضغ مرارة صبَّار الخور، أحمل فوق رأسي سنط الخور وروحى معلقة بين السماء والأرض، تشاهدها الطيور ترتجف، أعض أناملي، لماذا تسقطني في بئر حمم مؤججة؟ تغلق على روحي بالأبواب والمزاليج، تدخلني من سم الخياط، لم يمر منه أحد غيري، ما الذي صنعته في تلك البلاد ولم يعجبك، اعترفت لك بذنبي وأقررت لك بضعفي، قلت لك إن ما حدث لم يكن برضائي ولا عن طيب خاطر، كنت مثل أهل المناشي مُكرهًا، ضحكتَ وتعالت ضحكاتك، حامت الهوام عند رأسي، قلت لي ساخرا: "يا مكَّار". لكنك لم تعرف أن الجافي وأنت من بعده من صنع بي هذا، أورثنى الجافي ضعفه حين أخرجني من أرض الخور صغيرًا، لا أعرف شيئًا، تركنى أهيم على وجهي طوال النهار في قرى المناشي بطولها وعرضها، نزلت المناشي وعشت بين أهلها، تربيت

مع صغارها، رمحت بينهم وبين النخلات وأكلت بلح المناشي، حتى بنات المناشي قضيت يومي أتفرج عليهن وأشاهدهن عن قرب وهن ينزلن الترعة البحرية عرايا يخلعن ملابسهن ويضعنها على الشط، ينزلن ماء الترعة البارد، تتحرك النخلات في مكانها وتشرئب عيدان البوص، يتحول عباد الشمس نحو ترعة المناشي، كن يتقافزن في الماء، يدلكن أجسادهن بماء الترعة، يضعن طينها الناعم على أفخاذهن، رأيت كيف ترك الأولاد ألعابهم وتجمعوا خلف النخلات، تلصص الأولاد من بين عيدان البوص على البنات العرايا في الترعة، وكيف كانوا يشهقون وهم يرون أجسادهن العارية، رأيت ولم أفهم، ظللت خائفًا وحيدًا أترقب، كنت أمرح بين شوارع وحواري المناشي على راحتي، لماذا أنزلتني من الخور؟! أنت الذي علمتني الأسماء كلها في بر المناشي ثم تركتنى للغواية.

تقول إنني عصيت أمرك وفعلت ما لم تأمرني به حين وضعت النار في مؤخرة حمار حامد الرديني.. وأنا اعترفت لك، لكنني لم أرتكب إثمًا، البنت سفيرة ابنة حامد الرديني أخذني جمالها حين رأيتها ذات صباح تحمل صينية الإفطار وتذهب إلى أبيها في الغيط، وحين رأيتها تقع في غيط البرسيم من تحتي وأنا أركب نخلة بيت الرديني، كانت تصرخ وتستغيث من عصا أبيها، أشفقت عليها وفعلت، وما فعلته عن أمري، كانت البداية حين صعدت سفيرة على سطح بيتها لتطعم الطيور، شاهدت مرعي البرادعي يتخفى وسط أعواد حزم القطن يتطلع إلي سفيرة. البنت بعد أن فرغت من إطعام طيورها، جلست تمشط شعرها الأسود الطويل، انحسر جلبابها عن فخذين وجسد طري، رأيت عينى مرعي تتسعان ورأيته ينتفض في مكانه، تابعت سفيرة، دققت نظرى، تأملت مفاتنها كمرعي، لمست طرف منديلها الذي وضعته إلى جوارها بعد أن كشفت عن شعرها، سحبته برفق، ظنت سفيرة أن ريحًا خفيفة حملت منديلها

بعيدًا، مالت بجذعها قليلا لتمسك به خوف أن يطير، رأيت مرعي يزيح أعواد القطن الناشفة بكفه قليلا، يتطلع إلى نهديها اللذين كانا يطلان من فتحة صدر عباءتها المقلّمة والمرصعة بالترتر، تابعت تكورهما فوق صدر سفيرة، منظر شد عيني مرعي، لم أفهمه لكنني شعرت أن ماء باردًا انسكب بروحي، أو كأنني مضغت رطب نخلات عطية، صدقني كان هذا أول إحساس أشعر به، كان مفاجئًا لمثلي، وحين طلبت مني أن أذهب إلى عنباية الحاج مفتاح، رأيت هناك حريش الغابي يضم سماح بين يديه عند العنباية، قرَّبها حتى لسعته أنفاسها، همَّ أمامي، قضم شفتيها المكتنزتين بالأحمر، رأيت كيف يغيب حريش عن الدنيا لدقائق وقد صار له تحول؟ شيء لا أعرفه، لم أجربه من قبل، تذكرت البنت سفيرة وهي جالسة على سطح بيتها، تمنيت ساعتها أن أفعل مثل حريش الغابي، أقضم شفتي سفيرة، وأخفيت خطتي عنك حين اقتربت منها وهي نائمة في فراشها، هي لم تشعر بي، ربما أحست أن ريحًا خفيفة لامست شفتيها، أو ربما تصورت نفسها تحلم بأصابع كف مرعي تمر على وجهها، وما فعلته عن إرادة مني. حلمت وأنا ممدد على سطح بيت سفيرة، حلمت أن أضمها كما يضم حريش سماح أمامي تحت العنباية لتدخل جسده ويتعانقان. لا أعرف ما الذي شعر به حريش ساعتها، لماذا غابا هكذا عن الدنيا، حتى إنني هممت وعبثت بفرع العنباية كما أمرتني، لكنهما لم يشعرا بوجودي، واتهمتني يومها بالتقصير وحشوت أذني بعباراتك البذيئة، لكنني لم أقصر في صرفهما، هما كانا غائبين عن الدنيا ولم يشعرا بما قمت به، قلت هذا إحساس لابد فوق احتمالهما، أنت لم تجرب إحساسًا كهذا مثلي تمامًا، لأن راجية ليست مثل سماح، هما وصلا إلى مرتبة من اللذة تجعلهما يغيبان عن الدنيا، صدقني.. لو كنت مكاني وشاهدت ما شاهدته تحت عنباية الحاج مفتاح لتمنيت أن تكون مكان حريش الغابي.. وتكون لك

امرأة مثل سماح، .تمنيت داخلي أن أجرب إحساسًا كهذا، أمتلك جسدًا يمنحني هذه اللذة العجيبة، انشغلت ليالٍ طويلة بهذا الأمر، أود أن أجرب إحساس مخلوق ليس مثلي، كيف يمكن أن يجد المرء لذة بمجرد أن يلمس غيره؟! أية تجربة أو مغامرة تلك؟ قررت أن أدخلها، ربما تودي بي داخل الأراضين السبع، أعرف أنك أرسلتني كثيرًا لكي أفرق بين حريش الغابي وسماح، طلبت مني أن أخيف سماح، أجعلها تهرب من أمام عنباية مفتاح، لكن كل مرة أهم أن أفعل هذا أتراجع، أقول دعهما هذه المرة، وأنا في قرارة نفسي كنت أود أن أشاهدهما متعانقين، يلمس حريش نهديها الطريين، تغيب سماح عن الدنيا وتتركه يمرح في جسدها كيفما شاء، يقطف من شهوتها، يدخلان في مشهد العناق الطويل الذي يأخذني إلى عالم لم أدخله قط، أقف على عتباته أتامل عاشقين يرتعان أمامى في مرح وأنا مكبل بجسدي الذي لا تدخله الشهوة ولا يتيح لي عناق المخلوقات، مخلوق شفاف لا معنى له، أدركت اختلافي وعرفت نقصي، شعرت بالحزن، كانت المرة الأولى التي هممت أن أعاتب الله أن جعلني على هذه الهيئة، تمنيت أن أكون مثل حريش.. لي قلب وجسد تتمناه سماح، كل مرة كنت ترسلني إلى عنباية مفتاح كنت أطير في فرحة، كيف أفوِّت منظرًا كهذا؟ أصبحت أنتظره.. بل وأجلس في انتظارهما طويلا، أحزن إن لم يأتيا، أعرف أن العمدة فتوح كان يغضب منك، يظن أنك لا تريد أن تفعل شيئًا من أجل أن تصرف حريش عن سماح، كان فتوح هو الآخر يشتهي جسد سماح الطرى البض، لا تغضب مني، أنا لم أشأ أن أعصي لك أمرًا، جبلت على طاعتك وفى خدمتك، ولكن ذلك الشعور الذي تسرب داخلي لم أستطع أن أسيطر عليه، أنت الذي تركتني هنا في المناشي، ما ذنبي وقد فعلت بي هذا وألقيتني في هذه القرى، دون جريرة مني انشققت نصفين، هل رأيتني أبكي من قبل؟ ها أنت ترى دموعي

كطفل من أطفال المناشي يبكي بحثًا عن أمه التي فقدها في سوق مزدحم. لماذا تحضرني جبرًا إلى الخزان، تسقيني كل هذا العذاب.. ما جريرتى؟ أنا خادمك، عصيتك مرغمًا وها أنا أكفر عن خطاياي، لا تخرجني من المناشي، دعني في هذه الأرض، لا أحب الحياة هناك في أرض الخور حيث أبقى وحيدًا حبيس أرض الحلفاء، أهيم على وجهي بين الأفاعى والحيات، أحببت هذه الأرض، أرض سماح وسفيرة وماء الترعة الذي يراقص بنات المناشي، لا تخرجني منها، اختر لي ما أردت من عذاب إلا أن تخرجني من المناشي، تقول إن مُلكي ومثلك أجدادي هنا في الخور ووادي الحلفاء، لكن ما جدوى الملك وأنت تجلس بمفردك وحيدًا تقطع وادي الحلفاء ذهابًا وإيابًا، كفى ما نلته من عذاب، إن أخرجتني من الخزان لن أعصي لك أمرًا بعد اليوم، لكن لماذا تريد أن تجعلني بلا إردة، مجرد خادم مطيع لسيد لا يبغي سوى الشر للمناشي وأهلها؟ ربما تغضبك كلماتى، ستقول: "كيف لمثلك أن يعرف الفرق بين الخير والشر؟ ربما الذي تراه خيرا يكون شرًا". لكنك تقول كلامًا غير مقنع، حتى ولو كنت إله المناشي كما تظن.. فالإله لا يفعل الشر ولا يريده في مُلكه، وأنت تقول لى إن أفعالي كلها خير محض، إذن كيف تفرق بين حريش وسماح ثم تقول إنه خير، إنه الشر بعينه لأنك تريد أن تمنح جسد سماح للعمدة فتوح، تمنحه لرجل لا تريده سماح، وتترك حريش الغابي عائشًا في عذاباته. عن أية حكمة خافية تتحدث؟ إن حكمتك ليست بالغة، تسخرني لأفعل له ذلك مقابل حفنة من قروش قليلة يلقيها فتوح في حجرك، أو ربما مقابل كيلة من القمح تطحنه راجية وتخبزه لك في فرنها البلدى الذي تشعله بحزم القطن التي تتراص فوق سطح بيتك، تلك الحزم التي يختبئ خلف مثلها مرعي البرادعي على سطح بيته ليشاهد سفيرة وهي تمشط شعرها الطويل، تلك الصورة التي ظلت عالقة في رأسي طوال الوقت، لم يتوقف

مرعي عن الاختفاء في أعواد حزم القطن، وسفيرة لم تتوقف عن تمشيط شعرها الأسود الطويل على سطح بيت أبيها حامد الرديني، مرعي اكتفى بمتابعة سفيرة بعينيه المفتوحتين على سطح بيتها، لم يرد أن يفعل شيئًا مكتفيًا بتلك النظرات التي يقتنصها كلما صعدت سفيرة إلى سطح البيت، أذكر أنني بعد أن مللت انتظاره بين أعواد حزم القطن جعلته يسقط من أعلى إحدي درجات السلم وهو يهبط كعادته من فوق، حيث صببت بعض الماء مما جعل قدمه تنزلق ويصاب بشرخ في عضلة السمانة، حتى يقعد عن الصعود إليها، لماذ لم يفكر أن يمسد ذلك الشعر الطويل بكف يده مثلما يفعل حريش مع سماح ؟ يخرج نفسه المؤطرة بسياج حديدي كأنه كائن محنط، كلما هبط من فوق السطح توضأ وفرد سجادته، راح يصلي، كان يصارع خياله الذي تضيئه سفيرة بجمالها الأنثوى، تلك الرغبة التي ترتع في جسده، تتوهج، تدفعه إلى ما يظنه المعاصي، يهم إلى الصلاة بقلب يرتجف، يؤنبه ضميره المتوجع، يطمع في غفران الرب حيث يلهث بالدعاء، لكن الله يعلم ما يرتع في جسد مرعي البرادعي من شهوة تدفعه مرغمًا أن يرتكب الإثم، لهذا سيغفر الله له تلك النظرات التي سددها لجسد سفيرة. كما أن الله يعلم أن مرعي حتمًا سيعاود الصعود إلى السطح ومتابعة جسد سفيرة من هناك، أية معصية تلك التي يصر على ارتكابها مرعي كل يوم والتقرب بالصلاة من أجل غفرانها من الله، ربما يدعو الله أن يحقق له سكينة لروحه وألا تمرح في جسده قشعريرة اللذة، كانت روحه المسكينة تقاوم تمرد الجسد لذا كانت تطلب من الله أن يمنعه من الصعود إلى السطح وأن يقلع بأمر إلهي عن الإحساس بذلك الألم، يجلس القرفصاء لساعات طويلة يقرأ القرأن الذي يجيد تلاوته، صوته الناعم يعبر النافذة ويسمعه أهل المناشي، يعجبهم ذلك الصوت الملائكي الصافي الذي يدخل الروح ويكسر الأقفال والأبواب الحديدية التي

وضعت على تلك القلوب، أعرف أنني لو فتحت رأس مرعي الآن ودخلته سأجد سفيرة جالسة فيه بفستان صيفي خفيف.. وشعرها السائب يصل إلى منتصف ظهرها، ولأنها لا ترتدى حمالة صدر سيتحرك النهدان على راحتهما مخلفين رعشة خفيفة حين يلمسان الفستان الصيفي الشفاف، سفيرة تجلس في رأسه رغم الصلاة ورغم تلاوة القرآن، فماذا يفعل مرعي؟ داهمه العرق، أغرق جبهته، فكَّر في النوم.. ربما أراحه من عذاب هذا الجسد الذي لا يهدأ، يظن مرعي أن الشرخ الذي أصاب سمانة رجله، حين أفلتت قدمه وهو يهبط من السلم، وحينها وقع وانكسر قدمه، عقاب من الله وأنه غير راض عنه، لكنه لا يعلم أنني أنا الذي فعلت به هذا حين سكبت الماء على درجة السلم حتى تنزلق قدمه ويقع، لم يكن عقابًا من الله بل كان غيرة مني على سفيرة، لم يكن مرعي يعرف أن الله لا ينتقم من العاشقين ولا يكسر أرجلهم، بل أنا الذي لم يطق نظراته لجسد سفيرة، كنت أود أن أجلس مكانه بين أعواد حزم القطن وأنا في مثل جسد مرعي وعلى هيئته، تراني ساعتها سفيرة، يا له من إحساس.. لم أجربه من قبل، لكن لو جربته سيكون رائعًا، لذا فعلت ما فعلت، هل تراني مذنبًا يحق عليه العقاب لذا أدخلتني الخزان وجئت بي مرغمًا لأعترف لك بذنبي؟ أنت أمرتني ولم أستجب كما قلت، وأنا كائن ضعيف جبلت على طاعتك ووجودي من وجودك، وتلك المناشي هي الملكوت، ماذا أكون بالنسبة لك.. هل أنا مجرد تابع؟

كل ما أخشاه أن أكون مجرد خرافة في ذهن عرنيش الجافي، ليس لى وجود حقيقي، ما الذي يدل على أنني موجود، لا أستطيع أن ألمس سفيرة أو أعانقها، يخيفني أن أتصور نفسي مجرد فكرة، مجرد هواء لا جسد له، وبعدها أصير مجرد خرافة مثل تلك الخرافة التي ملأت عقول أهل المناشي، صورت لهم كذبًا أنني قادر على أن أصنع كل شيء، هذا هراء، أنا لست

إلهًا، أنا مجرد مخلوق مثلكم، حتى ما ترويه جمالات عن شجاعة زوجها أمام نسوة المناشي وتقول إن العجوز ربط الجني في جذع النخلة وأوثقه من عنقه بحبل كان في يده، النسوة يشهقن وهن يسرحن في خيالهن عن صورة للجني المربوط، جمالات تتركهن برهة ثم تقول إن الجني بكى بكاء الأطفال في حجر زوجها العجوز أقوي رجال المناشي، استعطف الجني زوجها ورق قلب العجوز لبكائه وحل وثاقه بعد أن أقسم له ألا يعترض طريقه قط، قالت لو تركه زوجها مربوطا لطلعت الشمس ورآه الناس على هيئته تلك وقذفه الأولاد بالحجارة، قالت النسوة لها وهن يمصمصن شفاههن: "ليت زوجك العجوز فعلها وتركه مبوطا إلى جذع النخلة كنا تخلصنا من جني الخور". لماذا تنكر هذه الحكاية ولا تريد أن تصدقها؟! تقول إن العجوز لم يربط جني الخور وهو لا يقدر على ذلك مهما كنت قوته حتى ولو كان يملك قوة سبعين رجلا من أشداء المناشي، لماذا لا تصدق أن حكايات أهل المناشي وخرافاتهم هي التي جعلتني أبدو كائنًا قويًّا، ها أنا أبكي مثل أي طفل من أطفال المناشي. حتى ما صنعته كان وهمًا ولم يكن حقيقة، أنا لا أستطيع أن أكون حقيقة تراها بعينيك، تلوي شفتيك الآن متبرمًا من كلامي، الذي حدث في ذلك اليوم كان مدهشًا وعجيبًا، سفيرة حين صعدت إلى سطح البيت تحمل طعام طيورها، رأت لأول مرة مرعي- أقصد رأتني، حركت أصابعها ناحيتي، جلست تغني أغنية عن الفارس الذي سيظهر لها فجأة ويحملها إلى الخور وهناك يشيد لها مملكة على كنوز الخور. جذبت المنديل عن رأسها، تحررت جدائلها السوداء، أول ما هبطت على وجنتيها وغرق وجهها في شعرها الكثيف الأسمر حتى رفعته بكلتا يديها ورمته على ظهرها، لم أعرف ماذا عليّ أن أفعل وأنا أتابعها؟ رفعت حزم أعواد القطن المرصوصة على بعضها تحت وهج شمس ساخنة، صدرت أصوات عالية نتجت عن تكسير العيدان

الناشفة، تخليت عن حذر مرعي وخوفه ورأتني سفيرة، ضحكت كأنها كانت تريد من مرعي أن يفعل هذا من زمن. أن يزيح أعواد القطن، يظهر لها، وحينها أشارت له بمنديلها المورد المصنوع من قماش الساتان الناعم، كورته بلطف حول فمها، مررته بين شفتيها كأنها تريد أن ترسل معنى ما لمرعي، قعدت مكانى لا أتحرك ثم تبسمت في خجل حين رأيتها تحرك رأسها يمينًا وشمالا، يطير شعرها الناعم الأسود الذي حمله هواء خفيف، ضحكت وضحكت، نظرت تتابع طيورها التي هاجت فجأة حين رأتني كأنها تعرفنى، ربما لم تر أبدًا طيورها على تلك الحالة. ذكر الإوز الملعون يطل ناحيتي في ذعر، يرقبني كأنه عرفني، مع صياح جمالات الصاعدة على درجات السلم تسأل ابنتها سفيرة عن سر هياج طيورها فجأة، انتفضت وخشيت على نفسي، سارعت بالاختفاء عن السطح، أعجبتنى تلك الحيلة وكررتها مرات عدة، رغم أنني حاولت أن أبدو على هيئتي، أدخل جسدها، فعلت ذلك وهي نائمة، كنت كمن يدخل عالما أسطوريًّا، أرتع في ألق لذة لم أعهدها، كنت على راحتي، لماذا تريدني أن أترك كل هذا وأعود إلى الخور لأحميه من حريش الغابي الذي يصمم على صعوده وكشف كنوزه التي تملأ المناشي خيرًا وفيرًا؟ صدقني.. أنا لا أصلح أن أعيش هناك في الخور وحدي وأترك المناشي، لقد أحببت الحياة هنا، إن كنت تريد مني أن أمنع حريش الغابي من صعود الخور سأفعل، لن أعصي لك أمرًا، أعرف أنك لا تفعل ذلك خدمة للعمدة فتوح لأنني أعرف أنك مازلت على علاقة ببيت خروشة أعداء العمدة فتوح، مازلت تمدهم بكل المعلومات التي يريدونها عن المناشي، تلتقيهم سرًّا دون أن يعرف أحد من بيت فتوح، اللقاء هناك في قارب عزيزة خروشة على صفحة مياة بحيرة قارون، لن تجد أمانًا مثل مركبها الذي يقف وسط الماء، حيث يحملك قارب عزيزة الصغير على ظهره لتصل إلى البر الغربي، هناك ستجد واحدًا

من بيت خروشة ينتطرك، ربما عبد خروشة أو مرزوق خروشة، سيبدو على هيئة صياد فقير، يلقي بشبكته في بحيرة قارون ينتظر أن تخرج له بأسماك موسى أو البلطي الذي يرتع في بطن البحيرة، سيقدم لك مقطف قراميط تتصارع ومشك سمك بلطي وستدفسها في بطن جلبابك الواسع، وحينها سترووي له تفاصيل ما يفعله بيت فتوح في المناشي، القراميط تتعارك في حجر جلبابك وأنت تروي ما يحلم به العمدة فتوح حين أراد أن يدخل أرض الخور ويحصل على كنوزها، يتعكر دم أولاد خروشة، ينهضون من أمامك وهم يقسمون أغلظ الأيمان أنهم عائدون إلى المناشي حتمًا، أعرف أنهم ينتظرون اللحظة المناسبة وسينقضّون على المناشي، لن يتركوا أخضر ولا يابسًا وإلا أحرقوه نكاية في بيت فتوح الذين أخرجوهم من بيتوهم واستولوا على أرضهم وأموالهم. الآن يعيشون في التيه، هناك خلف البحيرة في الجانب الغربي حيث الصحراء الواسعة وأراضى أملاك الدولة التي يضعون يدهم عليها بمساعدة مطاريد الحكومة، المال يصنع لك كل شيء.. وبيت خروشة أغنياء رغم ما وقع لهم من خسائر؛ حيث تركوا أرضهم وبيوتهم، لكن يروى عن الحاجة نجيَّة زوجة طه خروشة أنها حملت ثلاث قفف تبن، أخفت في بطنها قطع ذهب بندقي خالص. مرزوق خروشة يحاول أن يجمع رجال العائلة، يشتري السلاح استعدادًا لذلك اليوم الذي سيفتح فيه المناشي ويسترد ملكه وملك آبائه، أعرف أنه يستعين بك وأنك قد وعدته بأنك ستسخر له جان الخور لأجل أن يستتب ملكه، من عمدة إلى عمدة، من ملك إلى ملك يضبع أهل المناشي ويزدادون فقرًا، حتى مرعي البرادعي الذي أنفق عليه أبوه مفرح البرادعي كل ماله من أجل أن يتعلم، ترك مدرسته وجلس على سطح بيته بين أعواد القطن الناشف يراقب ظهور سفيرة، ينتظر أصحابه القدامى الذين يأتون إليه من عزبة جبريل لزيارته، يقرأ شعر عنتر حسين النوبي ابن حسنية الحفَّافة

ويسرح بخياله، يظن أن النوبي يصف سفيرة في شِعره، لكن عنتر كان يصف عزة لبيب القُمّص.. التي رق قلب عنتر لها وهي تخرج من بيتها التي تحيطه شجرة نبق عجوز، رآها كبلقيس ملكة الزمان، كراسات شعر عنتر المدرسية تمتلئ بأشعار عزة، آه لو عثر عليها أحد لفتح لهيب فتنة في المناشي، لو شم راعي كنيسة العذراء خبرًا سيبلغ العمدة فتوح وتشتعل فتنة لن تهدأ، مرعي حذَّر النوبي كثيرًا من تلك العلاقة التي هي نبت شيطان. أنت تخشى أن يصعد حريش الخور، حينها ستكون بداية وليست نهاية، سيتجرأ أهل المناشي على صعوده، لن يهابه أحد بعد اليوم، ساعتها تتقوض مملكتك، لن تكون لك أرض يا عرنيش، أرضك وعزوتك وقوتك وكنزك هي الخور الذي لم يصعد إليه أحد، لكن تذكَّر أن صميدة الغابي وصلت قدمه إلى هناك، كنتُ صغيرًا وقتها وحين رأيته أصبت بالذعر والخوف، لم أكن قد رأيت مخلوقًا كهذا من قبل، ضحك الجافي حين روى له أبي ما جرى لي، رأيت رجلا يستند على سلاميته الخيزران، يصعد بمفرده إلى أرض الخور، الأرض التي لم يسكنها سوانا، لم تصل إليها قدم بشر، مضى صميدة الغابي خلف جاموسته التي صعدت الخور، لم يكن صميدة خائفًا ولا مذعورًا حتى مع محاولات أبي حين أطلق الأفاعي من وادي الحلفاء، سمع صميدة فحيحها بجوار أذنه، وقعت منه السلامية الخيزران، استند بظهره على نخلات عطية، سقط على رأسه البلح الرامخ من النخلات، وضع واحدة في فمه وراح يمضغها برفق، ما جرى بعدها كان مثيرًا.

لكن حتى الآن لا أعرف لماذا اندفعت جاموسة صميدة، فكت قيدها وانطلقت تعدو على أربع ناحية الخور؟ كنت ألهو عند ترعة المناشي وحدي حين شاهدتها تعبر على المعدية لتصل إلى الخور، كانت هائمة على وجهها، وما إن وصلت حتى أخذت تأكل من خيرات الخور، الحشائش الطرية، تقضم من حلفاء الوادي، تحك جسمها في شجرات السنط

الإفرنجى بينما باتت هداية حزينة في قعر بيتها بجوار فرنها البلدى تبكي، كانت تعد فخار الحلب استعدادًا لعودة جاموستها من الغيط لتحلبها ثم تدخلها الزريبة، هداية ستأخذ اللبن لتملأ صحنها الفخار وتقدمه لزوجها صميدة ريثما تجهز عشاء الليلة على الطبلية، لكن الجاموسة فكت قيدها، انطلقت تعدو ناحية الخور بلا سبب.

ها أنا أخبرتك بما لم تسطع عليه صبرًا، لم أخف عنك سرًّا، دعني أخرج من الخزان وأعدك أن أطيعك، لن أعصي لك أمرًا، هذا الألم يشق روحي نصفين، تريد أن تعلقني بين السماء والأرض، مثلما فعل الله بالملاك الذي رويت لى عنه وقلت لى.. إنه معلق الآن بين السماء والأرض إلى أن تقوم قيامة الأكوان جميعًا. تريد أن تجعلني مثله وتعلقني على حائط الخزان إلى أن تقوم قيامة المناشي، يومها تزول المناشي ولا يبقى منها شيء، هكذا قلت لى.. إن الجافي هو الذي حدثك سرًّا عن قيامة المناشي حين يعلو ماء البحيرة المالح فوق ماء الترعة العزب، حينها ستغرق المناشي وتزول. الملاك الطيب هاله أن يرى ذلك الإنسان وهو يعصي الله، يومها قال الملاك في نفسه: "لو منحني الله حرية مثل البشر لاخترت طاعته وما عصيته أبدًا، كيف يعصي هذا الإنسان ربه".

لم يدر هذا الملاك الطيب أن ما يحمله الإنسان لا تتحمله الكائنات جميعًا، لذا حين استجاب الله وحقق أمنية الملاك الطيب ووهبه الله جسدًا فما كان منه إلا أن وقع في المعصية حين رق قلبه للفتاة التي تخلَّفت عن القافلة وكان جالسًا بجوار النخلة التي تتوسط صحراء قاحلة وكان الله قد أنشأها له لتطعمه من رطبها وتحميه بظلها من شمس الصحراء، سجد الملاك الطيب شكرًا لله أن وهبه تلك النخلة، وحين سارت الفتاة نحوه ورآها خائفة ترتجف، فزع الملاك وتحرك نحوها، أمسكها وطمأنها أن أهلها بالقافلة لابد أن يفتقدوها وسيعودون سريعًا، أدخلها خيمته

ليلا وحين وقع ضوء القمر على جسدها البض، ورأت النخلة كيف انتشى الملاك وتمرغ في جسدها اللين الذي سلب لبَّه، وشغلته الفتاة عن نعمة النخلة، أخذه جسد الفتاة حين رآه على هيئته جسدًا مثل رمال الصحراء لا نهاية له، اختلس نظرة بعد أخرى من كوة بالخيمة رقت لصياحه وألمه كل الكائنات، حتى سمعت أنينه الوحوش في جحورها والحيتان في بحارها، حينها أشفقت عليه الطيور ونادته النخلة من فوقه وكان خلقها قبل خلق الناس، وحين همّ بها وقعت الرطبات في حجره وأمسكت الريح عن الدوران وسكن الماء في العيون الجارية، حينها رفع الله ملاكه الطيب بين السماء والأرض وظل هكذا معلقًا مثلما أنا معلق الآن على حائط الخزان ألوك ألمي وأنتظر نهايتى.

(8)
حكاية مرعي.. حكاية المناشي

حضر عنتر النوبي إلى بيتى فَرِحًا نشيطا وهو يردد على لسانه كلمات لم أفهمها:

- أخيرًا تحقق حلمي يا مرعي.

ترددت قبل أن أشرع في سؤال عنتر النوبي عمَّا يقصده وهو فَرِح هكذا، قدماه تطيران في الهواء، وضعت أمامه صينية الشاي وبها كوبان، أمسكت بكوبي ودفعت إليه بالكوب الآخر، رأيت البخار المتصاعد يتحولق حول فمه الذي ظل يردد مفردات السعادة والأمل على أذني، عنتر على غير عادته يبدو فَرِحًا، وجه النوبي لا تفارقه الأحزان، الأحزان تسكن تجاعيد وجهه الأسمر، أخيرًا رأيته يضحك، لم أره أبدًا في تلك الحالة من النشوة، ربما عثر على كنز مما تحكي عنه أساطير المناشي وترويه حكايات الجدات هنا في المناشي حيث تغرب الشمس وتبدأ حكايات الجدة لأطفال البر، تجلس متربعة على المصطبة التي ترتفع قليلا أمام بيتنا الذي تحتله أكوام كبيرة من قش الأرز مكومة ومرصوصة على هيئة حزم حتى يسهل على أبي استخدامها في حشو برادع الحمير بمهارته التي لا يدانيه أحد فيها في بر المناشي كله، بل وذاع صيته خارج المناشي أيضًا، كيف تحرك النوبي على أطراف السعادة هكذا، ظل الفقر يطبق على رقبة عنتر حسين النوبي حتى إنه دائمًا يردد مقولته المشهورة على مسامعي وهو يضحك:

- لو كان الفقر رجلا لما وجد بيتًا يسكنه في المناشي أرحب من بيتي.

نضحك على كلماته ونقرأ شعره ونصفق ونحن نحلق معه في فضاءات سعيدة، كنا نذهب سويًّا إلى المدرسة في جبريل، هو في الثانوي وأنا في

الإعدادي، ورغم فارق السن فقد قرَّب بيننا حب الشعر، صرنا صديقين، أيامًا طويلة قضيناها سويًّا في قراءة الشعر، واليوم على غير عادته يطفر الفرح من فمه.. قلت له:

- مالك يا صديقي.. هل ربحت مالا؟

- المال يخاصمني وقد طال الخصام بيننا.

ضحكت وقلت له:

- ماذا جرى؟

قال وهو يتراقص:

- الجمعة القادمة سنكون معًا في الحناوي.

تعجبت ولم أفهم مقصده، ماذا يعني أن نذهب معًا إلى عزبة الحناوي التابعة للمناشي؟! حتى مولد الحناوي الذي يقصده أهل المناشي لم يحن بعد، نظر عنتر النوبي ناحيتي فوجد الدهشة تحاصر رأسي وأسئلة كثيرة تحوم حول فمي، قال في دفعة واحدة:

- يوم الجمعة القادمة سنصلي هناك في الحناوي، وسأصعد المنبر هناك، سوف أخطب الجمعة في جامع الحناوي.

نظرت إلى الأرض ورسمت بأصابع قدمي دائرة على تراب أرضية الحجرة، بينما كان عنتر يروي لي تفاصيل ما جرى حين قبل دعوة أحد أصدقائه في الفصل لكي يخطب الجمعة هناك في جامع الحناوي، وسيعقب الخطبة مأدبة غذاء ستكون في بيت إمام الجامع الذي رحب بالفكرة؛ أن يجلس ليستمع إلى خطيب جديد، أمر لم يحدث له منذ سنوات وهو كل جمعة يصعد المنبر ويبحث في رأسه الملفوفة بعمامة الأزهر عن كلام جديد، لكنه ومنذ فترة طويلة شعر بأنه لا يأتي بجديد، وأن المصلين في جامع الحناوي قد حفظوا جميع خطبه، الفكرة راقت لشيخ الجامع الهَرِم واستحسنها.. ووافق أن يصعد إمام آخر منبر جامع الحناوي، وراقت

الفكرة أيضًا لصديقي النوبي وتقبَّل الدعوة سعيدًا بالفكرة، سيصعد المنبر وسيكون خطيبًا ذائع الصيت.. ولم لا وهو شاعر، الجميع يثني على أشعاره وطريقته في إلقائها، ولم لا يستثمر قدرته المبهرة في إلقاء الشعر ويوظفها في إلقاء الخطب في الجوامع وساعتها ستدر عليه مالا ربما يغنيه عن تلك القروش القلية التي تجمعها أمه "حسنية الحفَّافة" من فتيات ونساء القرية التي تذهب إليهن لإصلاح حواجبهن ونتف شعر وجوههن، حسنية الحفَّافة تطلبها نساء المناشي لمهارتها في رسم الحواجب ونزع الشعر دون ألم، اللهم إلا ألم خفيف يشعرن به نتيجة نزع الشعر بالفتلة، صارت ذائعة الصيت هنا في المناشي لمهارتها، "حسنية الحفَّافة" تعرفها كل نساء المناشي ويطلبنها في مناسبات عديدة حين تهل الأعياد مثلا.. لكن ما تجنيه من صنعتها قليل جدًا لا يساوي ما تبذله من جهد، وهي رغم ذلك تصر على أن يُتم عنتر تعليمه مهما تكبَّدت من مشاق في سبيل ذلك، وطالما رأى نسوة المناشي وهي تطلب ابنة إحداهن أن تجلس أمامها متطوعة حتى "تظبط" وجهها، وآخر مرة فعلت ذلك حين استوقفت سفيرة ابنة حامد الرديني، نظرت إلى وجهها بينما كانت سفيرة غارقة في خجلها وحسنية تقول لها:

- سبحان الله جمال ربانى يا سفيرة.. وجهك يا ابنتي كالبدر، سوف أزوركم في البيت غدًا لأنير وجهك.

حسنية الحفَّافة فعلت ذلك متطوعة دون مقابل، كانت تقدِّر الجمال وتنظر إلى وجه المرأة فتعرف من أين تبدأ، حكاياتها ملأت بيوت المناشي وكثيرًا ما تستنجد بها إحداهن حين يطرق باب بيتها عريس لابنتها، تهرع المرأة إلى بيت حسنية الحفَّافة وتستجلبها على وجه السرعة إلى بيتها وتأمر ابنتها أن تجلس أمام حسنية وتقول لها في توسل:

- العريس سيزورنا غدًا، أريدها تأكل عينيه، افعلي ما بوسعك، هي ابنتك.

الأم تترك البنت في حجر حسنية وتذهب على الفور تشعل الكانون وتضع "كازرولة" الشاى على ناره، كل نساء المناشي يعرفن أن حسنية تحب الشاى ثقيلا، تضع "التلقيمة".. حفنة شاى كبيرة، وتتركه يغلي على النار حتى يصير كالحبر ثم تصبه في كوب صفيح وتقلِّب بالملعقة سُكَّره، حسنية تحب الشاى سكره خفيف، عنتر كانت تؤرقه كثيرًا مهنة أمه وهو يخفي عن زملائه في المدرسة صنعتها، وكلما قابل أحدًا يعرفها يشعر بالانكسار، كنت ألاحظ ذلك وأرفع من روحه التي تتباكى، وفي الوقت نفسه كنت أشفق عليه لأن سيرة كهذه في المناشي كفيلة بأن تجعلك وضيعًا لا قيمة لك بين أقرانك مهما كنت شاعرًا أو حتى صاحب وظيفة في البندر، لكن الذي حدث في الحناوي في تلك الجمعة لن يصدقه أحد، كان أمرًا فوق تصوّري وقلت لك الله يا عنتر.. حلمت أن تصعد المنبر، وربما كنت خطيبًا مفوَّهًا يلتف حولك الناس وساعتها حتمًا ستنتهي سيرة حسنية الحفَّافة، لكن ما حدث لك اليوم حدث لك بالأمس حين أحببت عزة لبيب ابنة لبيب القُمّص وجدّها القس سمعان، كتبت شعرًا رائعًا ملأت به كراسات المدرسة، حاز إعجاب جمهور ندوة الخميس في البندر، وحدي من بين المستمعين لشعرك الذي يعرف صاحبة القصيدة التي ألقيتها في ذلك اليوم، طبعًا كنت تقصد عزة لبيب، حين ركبنا قطار الثامنة صباحًا ووصلنا في الموعد وأبهرت كل جمهور الندوة.. وأشادوا بشعريتك، لبيب القُمّص أقعد ابنته عزة عن الذهاب إلى المدرسة حين سمع أن عنتر النوبي يكتب شعرًا فيها، ويقال إن راعي الكنيسة هو الذي أمره بذلك خشية الفضيحة في المناشي، حين غابت عزة انقبض قلب عنتر النوبي وصار حزينًا، كتب أشعارًا حزينة طويلا، كانت أبياته تقطر دمًا مثل قلبه، وحين طال وقوفه أمام شجرة النبق التي ترامت فروعها واحتضنت بيت عزة وسار حديث الناس عنه، أخذ لبيب القُمّص ابنته في صباح يوم شتوي بارد جدًا ورحل

إلى دير العزب وتركها هناك وعاد، غاب وجه عزة الصبوح عن المناشي وزاد حزن عنتر حتى إنه كف عن كتابة الشعر ومرض، وبكت حسنية الحفَّافة ابنها حتى رأيت دموعها تنساب على وجنتيها ليل نهار، لم أتركه في تلك المحنة، كان يردد اسم عزة في غيبوبته، الحمى اشتدت وحار الأطباء في علاجه، مكث عنتر في السرير طويلا ولما رأت حسنية الحفَّافة ذلك طرقت باب عرنيش الجافي، حضر ولمس وجه عنتر الساخن وقال في لهجة الواثق إن عنتر النوبي ممسوس من جنيات الخور، وكنت أعرف أن عنتر ممسوس فعلا ولكن ليس من جنيات الخور بل من عزة لبيب.. أجمل جنية في المناشي، كنت مثله قد تعلَّق قلبي أنا الآخر حين رأيت سفيرة ابنة حامد الرديني فوق سطح بيتها تطعم الطيور، كانت الشمس تحك في سحاب السماء المتبدد وأعواد القطن الناشف فوق سطح بيتنا تخفيني بينما كنت أرقبها من هناك، رأيت جدائلها وهي تتحرك حول وجهها، كانت تفك الجدائل.. تحرر الشعر الأسمر وهو يهبط على الوجه المضيء بحرية، تمد يدها وتدفع شعرها إلى الخلف كلما غطى الشعر وجه سفيرة، لولا أنني وجدت عقاب الله لي سريعًا حين سقطت قدمي من على درج السلم وانشرخت السمانة وقعدت لا أتحرك أيامًا، عرفت ساعتها أنها علامة من الله أن أكف عن المعصية ولا أصعد السطح، كنت أجد ألما مبرحًا في صدرى وتحملت عناء كبيرًا، لكنني كنت أرى أن الله تعالى قد ادخرني لأمر هام يخص المناشي ولا يجب أن أنشغل بأي شيء آخر مهما كان، نفسي راودتني كثيرًا أن أصعد إلى السطح وكاد الشيطان يغلبني وينتصر أحيانًا فأصعد إلى السطح وأختبئ بين أعواد القطن وأتبعها بشغف، كانت سفيرة تطل ناحية سطح بيتي تنتظر أن أخرج إليها لكنني كنت عاجزًا عن الخروج من حزم القطن، فقد رأيت بعيني عقاب الله تعالى حين وقعت قدمي وانكسرت وعشت أيامًا صعبة في السرير، لن

يرضى حامد الرديني أبدًا أن يزوج ابنته سفيرة لشاب مثل مرعي بن مفرح البرادعي، الرديني صاحب خمسة أفدنة من أجود وأخصب الأراضى في المناشي، لن يعطي ابنته لابن صانع برادع الحمير، هذا هو قانون المناشي الصارم، لن يكون بوسعي مخالفته وهذا ما جرى لصديقي عنتر النوبي، كان يحلم أن يتزوج من عزة ابنة لبيب القُمّص لكن هيهات أن يحدث ذلك، وحين ذهبت مع عنتر إلى الشيخ زكريا.. إمام جامع المناشي وسألناه عن ذلك قال لنا في صرامة:

- هذه فتنة عظيمة يا ولدى، ابتعد عنها ولا تشعل النار في المناشي.

لكن عنتر لم يكف عن لقاء عزة لبيب عند جسر عبد الهادي في الكوم الأسود، لقاءات دامت واستمرت، عنتر كان حالما، كان يظن أنه بإمكانه إن أكمل تعليمه أن يحمل أمه ومعه عزة ويرحل عن المناشي كلها، قال لي متهكما:

- سأهاجر.. لماذا أقعد في المناشي أقضي عمرى كله أتحمل نظرات الساخرين منِّي؟

- لكنها البلد الذي ولدنا فيه.

- المناشي لا تحب أبناءها، تلفظهم وتلقيهم خارجها، إنها أم ظالمة لا تساوي بين أبنائها يا مرعي، لو كانت تحبنا ما تركتنا جوعى نأكل السريس والجعضيض.

كان مُصممًا أن يحمل أمه وعزة ويرحل عن المناشي في ليل شتاء كهذا دون أن يشعر به أحد من أهل المناشي، سيهاجر إلى البندر كما كان يخطط، في البندر لا يسأل أحد أحدًا عن أصله أو عن صنعة أمه، الحياة هناك تدور سريعًا، حلمه الذي استعجل تحقيقه، كان يعد الأيام ليتخرج في الدراسة ويرحل عن المناشي، لم يستطع عنتر الهجرة بعد أن رتَّب كل شيء، أخبر عزة لبيب بالموعد كما أسر لأمه وطلب مني أن أقعد مكانه في

البيت حتى لا يلحظ أحد من أهل المناشي رحيله كما كان يحلم، وها هي عزة لبيب صارت بعيدة عن يده، حملها القُمّص إلى صحراء دير العزب، حين سألتْ عن ذنبها، قال لها أحد الرهبان وهو يلوح بالصليب في يده:
- الخطيئة أن نعشق الجسد الفاني.
- لكنني بشر وقد أحببت والله محبة.
- أخلصي حبك للمسيح تكونين في الرضا.. الجسد للموت والروح للحياة.
جلست وحيدة تحت شجرة نبق عتيقة، تتأمل وجه عنتر الغارق في البكاء، انتشرت الأقاويل بين أهل المناشي حتى استدعى راعي الكنيسة لبيب القُمّص وأمره أن يغلق بابه جيدًا وأن يمنع شرًّا كبيرًا سيطال المناشي كلها إن وقع.
حين رأيت عرنيش الجافي واقفًا عند سرير عنتر يراقب حالته ويرش ماء باردًا حول السرير استشعرت الرهبة، نظر ناحيتي وحيَّاني بكلمات قليلة، أدركت أنه يعرفني جيدًا، تخيلت عفريته الذي يستعين به، مجرد كتلة من النار تتدحرج في الهواء ويمكنه أن يتشكل على هيئة طائر ناري يحلق بأجنحته السوداء حول المناشي، رأيت منقاره الذي يشبه هدَّار ترعة المناشي حيث تسقط النار منه وتحدث دويًّا في السماء، ضحكت في نفسي، إذ كيف أتخيل عفريته على تلك الهيئة الساذجة، هو لن يكون كما تخيلته.. ربما أبشع وربما أجمل، لماذا نتخيل الشرير على أنه كائن قبيح المنظر؟! ربما يكمن الشر في الجمال أكثر من القبح، مثلما يكمن في جسد سفيرة البض، ترى كيف يتعامل عرنيش الجافي مع عفريته الذي يأتيه من الخور في لمح البصر كما يقول الناس ويحكون عن مهارته وقدرته وبطشه؟ ربما يجلس الآن بيننا ولا نراه، يقولون إن عرنيش يعرف اسم الله الأعظم وهو يستطيع أن يسخر أى كائن بهذا الاسم، لكنني كنت مندهشًا لأنني لم أر عرنيش يصلي أبدًا في جامع المناشي، من أين أتته هذه القوة؟! عنتر

النوبي كان ممددًا في غيبوبته على السرير، الحمى تدخل جسده والأطباء حيرى في علاجه، لكن هل يفلح عرنيش الجافي في علاجه فعلا؟! سدد نظرة قوية إلى حسنية الحفَّافة وقال لها في ثبات دون أن يعطيني أى اهتمام:
- خذيه، أنزليه ترعة المناشي عريانًا، الماء سيطهره من سكان جسده وسيجلب له الشفاء.
انصرف بينما شرعت حسنية الحفَّافة في إتمام المهمة التي أمرها بها عرنيش الجافي، حملته إلى ترعة المناشي دون أن تلتفت لصراخي الذي تردد خلفها وهي مصممة على إنقاذ ابنها الوحيد ولا سبيل غير إنزاله في ترعة المناشي ومائها الذي كاد يتجمد من شدة البرودة في شتاء قارس، كنت أتهكم على كلام عرنيش الجافي وأنه سينهي حياة ولدها لكنها كانت تسخر مني وتقول في صرامة:
- إنه ليس كلام عرنيش الجافي، إنه أمر جان الخور، عرنيش ليس سوى رسول يحمل الأمر فقط.. وعلينا أن نطيع.
كان إيمان حسنية الحفَّافة بكلام عرنيش الجافي شديدًا مثل معظم أهل المناشي ولن تفلح تهديداتي أو محاولات إقناعي التي لن تجد صدى أبدًا مع هذا الايمان العميق بقدرة عرنيش الجافي، خاصة وأنه وضع في يدها ثلاث رامخات خضراء من بلح نخلات عطية الأمهات وأوصاها أن تطعمها لابنها عنتر بعد خروجه من ترعة المناشي، حدثتني نفسي أن أضع واحدة منها في فمي وأذوق طعمها بعد أن وضعت حسنية الرامخ في جيبي وطلبت مني أن أحرص عليها حتى خروج عنتر من ترعة المناشي، كنت سألوك واحدة في فمي. تلك الرطبات من رطبات الجان هناك في الخور، حسنية خبطت على صدرها وهي تصيح بعد أن ألقى عرنيش الجافي في أذنها بكلمات قليلة، صرخت بصوت عالٍ:
- راعي كنيسة العذراء، مصيبة حلت بولدي الذي خرجت به من الدنيا.

طرقع عرنيش الجافي أصابع يده ونظر ناحيتي ووجدني خائفًا، همس بكلمات قليلة لم أفهمها ثم اقترب مني:
- لبيب القُمّص حضر إليّ وطلب مني أن أبعد عنتر عن ابنته عزة، الرجل كان حزينًا ومرتبكًا وضائعًا، أحضر معه خمسة أمتار قماش صوف إفرنجي وزجاجة عطر لراجية التي لن يفلح معها أي عطر.
ضحكت رغم أن الظرف لم يكن مناسبًا وحمدت الله أن حسنية الحفَّافة ذهبت لتحضر الشاي لعرنيش.
- وعدت القُمّص لكنني لم أفعل، أنا أحب سير العشاق وحكاياتهم، قلت دع عنتر يفرح يومين قبل أن يغادر.
بحثت في عينيه، لم أجد سوى قاع عميق لا تصل إليه قدم مثل البئر المهجورة التي وقعت فيها البقرة ولا أحد يعرف حتى الآن سر ذلك، ماذا كان يقصد عرنيش بحديثه عن عنتر.. وأين سيغادر؟ الملعون يحاول استدراجي لتفاصيل أعرفها لكنني لم أجاره في حديثه والتزمت الصمت، وقلت بعد أن يقوم عنتر من رقدته سوف أحكي له ما جرى، دائمًا يشعرك عرنيش أنه يعرف كل شيء ولا تخفى عليه خافية في بر المناشي كلها وربما يعرف أيضًا ما جرى لي مع سفيرة ابنة حامد الرديني، انشغلت طول الوقت في القراءة حتى أبعد عني طيف سفيرة، لكنني لم أفلح، بعد أن شاهدت عنتر النوبي يشهق في مياه ترعة المناشي الباردة أدركت كم يكلف العشق الإنسان، وأنه داء يمسك بالبدن ويجعل صاحبه كأنه ممسوس، شهق عنتر أمامي ثانية وعطس وكح كحات شديدة، حسنية كانت تتألم أمامي وكل مرة تسمع شهقته تصرخ وتضرب بكفها على صدرها خوفًا عليه، وأنا أمسك برامخ نخلات عطية وأقبض عليها بجيبي كلما شعرت أنها تتحرك وربما يتهيأ لى ذلك وحينها أحكم قبضتي عليها حتى لا تفلت مني، ساعتها لن تسامحني أم عنتر إن سقط الرامخ من جيبي وشفاء

ابنها يكمن في مضغها، أجلس أترقّضب الساعة التي أهبط فيها إلى مياه الترعة كى أخرج عنتر، كنت أردد آية الكرسي وألهث بالدعاء كي ينجِّي الله عنتر من هذه المحنة التي يمر بها، حمدت الله أن سمانة قدمى انشرخت ولا أستطيع صعود السطح لأرى سفيرة وقلت إن قدر الله كله خير وقد طال عقاب الله حامد الرديني حين رفسه حماره وشج بطنه ووقع على الأرض، كان حامد وقتها قد فرغ توًّا من ضرب ابنته سفيرة بالعصا وسط غيط البرسيم حين رآها تحمل صينية الغداء وتسير بمحاذاة الجسر، كانت ضفيرتها تتأرجح على ظهرها وكانت تغني، انتفض الدم في عروق حامد لما رأى ابنته على تلك الهيئة، حمل عصاته وانهال عليها ضربًا ولم يتأخر العقاب، على حين غفلة رفسه الحمار وشج جلد بطنه ووقع على الأرض يصرخ، فجأة تداعت على رأسي حكاية الحناوي حين مر على بيتي عنتر النوبي وهو يرتدى جلبابًا أبيض ويضع الطاقية الشبيكة على رأسه، وحين اندهشت لرؤيته على هذه الهيئة صرخ في وجهي:

- أنا ذاهب لكي أخطب الجمعة، والإمام لابد من أن يرتدى جلبابًا يليق بمكانة المنبر.

كان الوقت مايزال مبكرًا لكنه برَّر ذلك بأننا ذاهبون إلى عزبة الحناوي سيرًا على الأقدام، ثم إن الإمام لابد أن يذهب مبكرًا، حكى لي طوال الطريق كيف أعد نفسه لهذا اليوم حيث أحضر كتابًا لخطب الإمام علي وأخذ يقرأ فيه وفجأة تخيل نفسه خطيبًا، صعد على ظهر الفرن البلدى الذي بناه أبوه حسين النوبي في الدهليز، فى ليالي الشتاء كان يحب النوم على ظهر الفرن، الرماد الساخن بعد خبيز أمه حسنية يمنحه الدفء في شتاء المناشي القارس، لكي يتخيل نفسه على المنبر صعد الفرن وأخذ يجرب الحديث بصوت عالٍ كأن أمامه المصلين، تشرئب أعناقهم وهم يتطلعون إلى مكانه العالي، قال لى يومها بنبرة حزن ونحن سائرون إلى الحناوي:

- المنبر سيجعلني عاليًا، سأكون وحدي الذي يتحدث والجميع ينصت.
شرب الينسون نزولا على نصيحة أحد أصدقائه ليحسِّن من صوته. مضينا في الطريق الترابي المؤدى لعزبة الحناوي وكنا سنمر على قرية الزاوية الخضراء وبعدها سنتجه يسارًا ناحية الحناوي حيث جامع الحناوي والمصلون ينتظرون إمامًا جديدًا يخطب فيهم الجمعة، لم أكن أشك في قدرة عنتر حسين النوبي ولا في طلاقة لسانه، لكنني كنت أشفق عليه من قهره لذاته، دائمًا ما يملأ أشعاره بالحزن والخوف والضياع، كان يصور نفسه على أنه قطعة من الشطرنج في يد الزمن، ذلك التشبيه الذي جعل ناقدًا بحجم الدكتور رفعت منصور يصفق له وسط الحاضرين.. بل وقام واحتضنه وقبَّله.

كانت الحفاوة بالغة حين وجدنا رهطا من كبراء الحناوي في انتظارنا، كانت شعائر الجمعة قد بدأت بتلاوة القرآن، أجلسونا في الصف الأمامي، وجدنا لطفًا من إمام الجامع حيث جلس إلى جوارنا وفى يده مسبحة بيضاء وعلى رأسه عمامة الأزهر، وما إن انتهى القرآن الكريم حتى بدأت الشعائر حيث قام المؤذن بالأذان الأول، بعده أدينا الركعتين، وما إن فرغ من الركعتين حتى وقف الإمام قبالة عنتر النوبي قائلا له:

- تفضل يا مولانا لتصعد المنبر.

وهنا وقعت الصاعقة التي لم أكن أحسب لها حسابًا أبدًا، امتدت اللحظة لعمر طويل لا ينتهي وزمن يمر كقطار البضائع بطيئًا بطيئًا، لم أصدق نفسي ولم أتخيل أبدًا أن يفعل عنتر النوبي ما فعل حين أعاد الإمام الأزهرى عليه الدعوة لصعود المنبر ثانية، نظرت إليه كان تائهًا، انقبض قلبي والتقت عيني بعينيه لثوانٍ، بدا قلقًا مرتبكًا ينظر ناحيتي مستجديًا، وما حيلتي والإمام بين يديه يدعوه لصعود المنبر وهو يفترش اللحظة ويجلس مكبلا على حصير المسجد تائهًا، لكن ما فعله كان فوق استطاعتي حين حوَّل

وجهه ناحيتي وأشار للرجل وقال بصوت هادئ:
- الشيخ مرعي هو الخطيب.
أصابني الهلع، وقبل أن أصرخ فيه وجدت الإمام الأزهرى يقف بين يدي ويدعوني أن أصعد المنبر، تجمَّد الزمن لساعات ورأيت نفسي أتدحرج في منحدر شديد، أقع في بئر بلا قاع، والرجل يشير لى بيده:
- تفضل يا شيخ مرعي.. تأخرنا على المصلين.
كان كل شيء أمام عيني قد تلاشى، لم أر أحدًا أمامى.. لا المصلين ولا عنتر النوبي ولا الشيخ الأزهرى، قمت من مقامي كأنني أساق إلى حتفي، أي جنون ارتكبه عنتر، كيف يدفعني إلى موقف كهذا؟! أنا لم أفكر طوال عمري أن أكون خطيبًا أو أصعد هذا المنبر الشريف، كيف أتصرف في موقف كهذا وقد تمدد الزمن فصار دهرًا وأنا أخطو خطاي نحو المنبر الشريف؟ أخشي أن يفتضح أمرى ويشعر المصلون بأن إمامهم يسقط في قاع بئر والعرق يداهم جسده وقدماه تحملانه بالكاد، صعدت درجات المنبر.. وما إن وجدت المقعد حتى جلست بعد أن ألقيت السلام، بدأت أفتش في رأسي الفارغ عن كلام يمكن أن يجري على لساني في تلك اللحظة بينما مؤذن الجامع يرفع الآذان الثاني.
وحين أتى اليوم الذي صعدت فيه منبر جامع المناشي بدلا من الشيخ زكريا وكنت قد اعتدت الخطابة في الزوايا المجاورة، يومها حين جلس عنتر النوبي في الصف الأول وجدته مبتسمًا سعيدًا وهو يراني أخطب في الناس بطلاقة، كنت أرتدى الجلباب الأبيض والطاقية الشبيكة التي أهداهما إليّ عنتر النوبي ويومها أصر أن يأخذني إلى بيته، وضع الحصيرة على ظهر الفرن البلدى وحين صعدت لأجلس على ظهره ضحكنا، علت ضحكاتنا حتى تنبهت حسنية الحفَّافة ونظرت إلينا وقالت:
- لو رآك أحد من الذين صلوا خلفك في جامع المناشي ماذا سيقول؟!

ضحكنا ثانية وذهبت لتحضر الشاى كعاتها على الصينية النحاس بينما نظر عنتر ناحيتي وعيناه صامتتان:

- ها أنت يا مرعي تحقق حلمي حين حلمت أن أكون خطيبًا وفشلت. كل هذا لن يغفر لك ما صنعته معي في جامع الحناوي، ألقيتني في بحر من الأمواج حين أشرت ناحيتي وقلت لإمام الجامع: "هذا هو الإمام الخطيب".

تنهد النوبي حين ذكَّرته بتلك اللحظة، يومها قال لي إنه لم يستطع أن يحرك أطرافه الباردة، قال إنه فعلا حاول أن يقوم من مقامه لكنه لم يستطع، جلس كصخرة صماء تربع الفراغ داخلها ومكث كطائر جريح يجرب كل مرة أن يطير لكنه يقع، كانت كلماته مؤلمة وزفيره الساخن تلسعني حرارته، أخذ رشفة من كوب الشاي وقال بصوت مكتوم:

- أين عزة.. أريد أن أراها، أراها مرة واحدة حتى ولو كانت النهاية؟ لماذا تنهار أحلامي كلها دفعة واحدة وأقف عاريًا أمام الجميع؟

قال لي يومها:

- هل كنت تظن أنني مثلك أستطيع أن أصعد منبر المناشي وأخطب في الناس؟ هل سينصت المصلون لابن حسنية الحفَّافة؟! حين هممت أن أصعد منبر الحناوي طاردتني صورة أمي وحينها تجمدت أطرافي.

الدموع تجمَّعت في عينى وانهرت في بكاء متواصل وأنا أضمه إلى صدري وهو يروي لي تفاصيل تلك اللحظة التي جعلته يتراجع عن صعود منبر الحناوي:

- حتى الشعر يا مرعي.. لو عرف أحدهم في الندوة صنعة أمى لانفضوا من حولي، الوحيد الذي يعرفنى على حقيقتى أنت، أنت يا مرعي، صدقني.. كنت أسعد الناس بصعودك منبر المناشي.

عزة لبيب حبسها القُمّص قى دير العزب، تعيش هناك في الصحراء مع الرهبان، كيف يحملونها إلى الدير مرغمة؟ كأنها من البغاء وهي ربة المكان والزمان، عزة شمس المناشي كما كان يصورها النوبي في كراسات شعره على أنها البنت التي خلقت ليست كنساء العالمين من ماءٍ صافٍ يجري من جنة الخلد وشجرة طلعها جمال الخلق وتمامه، عيناها تفرشان صبحًا لم يخرج بعد إلى الناس، كأنها نور مشكاة يُضاء من قمرٍ صافٍ، حين اقتربت مسَّني لطف خفيف.

أنت.. أبعدوها عنك، أما أنا فقد تركت سفيرة أمامي وذهبت بعيدًا، تركتها لأبيها يصنع بها ما يشاء، خشيت الاقتراب منها، قلت كيف تكون إمامًا وترتكب ذنبًا كهذا، لم أعرف أننى ارتكبت الذنب الأعظم، كم مرة رأيتها هناك فوق سطح بيتها تكاد تتمزق من سكوني، ما الذي أحمله بين جنبي؟ قلبًا جامدًا لا يتحرك، أود أن أصرخ في العالمين باسمها أو أعلن عشقي لها على المنبر الشريف، سأقول للناس ما جدوى أن نعيش كبشر وقلوبنا لا تحب، أنت استطعت أن تهرب أخيرًا، حملت همومك على راحتيك وابتعدت عن المناشي، هجرتنا وذهبت بعيدًا، قلت لى يومها "سأسافر". وقعتُ عقدًا لأدرس الإنجليزية هناك في بلاد الحجاز وليتك ما سافرت، منذ رحيلك إلى تلك البلاد البعيدة وأمك حسنية الحفَّافة جلست في قعر بيتها كما أمرتها، جلست كجذع شجرة تواصل بكاءها ليل نهار، تركتها تموت كل ليلة لأنك ابتعدت وكنت كل ما لها في الحياة، كيف قسى قلبك إلى هذا الحد؟ أمن أجل المال نترك من نحب؟!

في الأيام الماضية تحرك العمدة فتوح لدى الحكومة في البندر يريد خطيبًا ليصعد منبر جامع المناشي، شعر بالقلق من كلامي على المنبر، في بعض الأحيان يظنني أخصه ببعض التليمحات، أبي مفرح البرادعي نهرني كثيرًا وطلب منِّي أن أبتعد في حديثي عمَّا يضايق فتوح في خطبي.

شعرت بالخوف.. ليس لي قدرة على المواجهة، قررت أن أبتعد عن المنبر، لا يمكنني أن أخطب وتلك المعصية في قلبي، سفيرة لا تريد أن تبرح قلبي، تجلس فيه على راحتها، كيف أجمع بين المنبر وبين عشقي لها، في الجمعة الأخيرة شعرت بثقل قدمي، هل تذكر حين رويت لي ما جرى لك حين كنت تجلس في الصف الأول في جامع الحناوي تلبس الجلباب الأبيض، قلت لي يومها إنك شعرت بأن قدميك كتلتان من الرمل والصخر، هذا نفس ما حدث معي الجمعة الماضية وأنا أضع قدمي على الدرجة الأولى من درجات المنبر، أكياس الرمل تملأ قدمي، ما الداعي للصعود؟! لماذا تركتني في هذا الفراغ.. وتركت عزة القُمّص في ديرها تتألم.. وتركت حسنية الحفَّافة هائمة على وجهها في بر المناشي تنادى على اسمك في كل الجهات؟ تركتنا نتعذب وأنت تجلس هناك بعيدًا في بلاد الحجاز تتلذذ بعذابنا.

(9)

جسد سفيرة خواء

أصبحت لا أفارق سريري، طوال اليوم أرقد على هذه المرتبة الناعمة ورأسي على تلك المخدة وعيناي مصلبتان على السقف الخشب، أمى جمالات تدخل على واجمة، تظن أنني مريضة، وفى الأيام الأخيرة سمعتها تحدث جارتنا وتقول لها بهمس إنها تظن أن سفيرة قد مسها سحر وتصرخ:

- كلما دخلت عليها وجدتها راقدة لا حس ولا خبر، كانت سفيرة شعلة نشاط.

منذ أن اعتاد زيارتى هنا في حجرتى وعلى سريري وأنا دائمًا في انتظاره، كلما أغمضت عيني رأيته، يأخذني إلى أرض بعيدة، أرض بلا غطاء.. بلا سماء، أطير وحدي كعصفور شريد، يُدخلني واحة خضراء، واحة تشبه جنينة الليمون التي تجاور جسر عبد الهادي التي يحكي عنها الناس هناك في عزبة الروبي حمزة، وعن أشجارها التي تتدلى أغصانها بالثمر من كل الأنواع، الثمرات تتدلى حتى تكاد تلامس الأرض، الأولاد الذين يقفون عرايا في ماء جسر عبد الهادي الرائق يستحمون قبل أن يندفع الماء ليهبط بقوة من هدَّار مرتفع ليدير طاحونة الشيخ، الأولاد ينظرون ناحية الثمار المدلاة ويقطفون القريب من الجسر، جنينة الليمون تعبرها نسائم باردة ومياهها تنساب في وديانها بوداعة، حين أغمض عيني على فراشي أراه كفارس يحملني بكلتا يديه ويدخلني فضاء من الغناء والموسيقى التي ترن في بيت فتحية السند، كلما مر من أمام بيتها أحد سمع هدير موسيقى وعزف، لا أحد يرى شيئًا، حتى بعد أن ماتت ظل البيت على

حاله، مضى زمن وهو يأتيني ليلا، ليس حلمًا إنما شيء يقارب الحقيقة، كيف واتته الشجاعة أن يأتي هنا على فراشي، مرعي الذي كان ينظر إليّ من بين فتحات أعواد القطن الناشفة من أعلى سطح بيته، كان يختلس نظراته في خجل، الآن تملؤه الجرأة، يقتحم جسدي كل ليلة ويأخذني بين ذراعيه، أعيش معه لحظات المتعة، يبحر بي كملاح ماهر عبر أمواج البحر الهادرة، ترتج أعضائي وتنفتح كوة من نور، أشهق من رجفة تصيبني وأنا أتعلق به، كلما نمت أتاني برائحة صباح جديد يطل على المناشي، ما أجمل النوم في حضنه وبين ذراعيه، قلت ربما كان صوفيًّا.. من كثرة عبادته صار جسدًا نورانيًّا شفافًا، أحوال الصوفيين يعرفها الناس، أحدهم ربما يحدثك هنا ويكون جسده في مكان آخر، مرعي الذي يصعد منبر جامع المناشي كل جمعة ويصلي بالناس إمامًا ويقرأ القرآن ليل نهار، الإخلاص في العبادة ينزل المرء حتمًا منازل الصوفيين ويصبح له من الأحوال ربما هو نفسه لا يعلمها عن نفسه، لماذا لا يمتلك مرعي شجاعة الليل ويأخذني أمام الناس في وضح النهار ويتحدى أبي الرافض؟! هل ينتظر أن يكون مصيري كمصير عزة القُمّص التي استيقظ أهل المناشي وقد وجدوها في شوارعهم وأمام بيوتهم هيكلا عظميًّا يتحرك، يفزع الأطفال وتغلق النسوة في وجهها الباب خوفًا على أولادهن، عزة القُمّص أجمل بنات المناشي التي أخذت لب عنتر النوبي وكتب فيها أشعارًا تحفظها بنات المناشي ويكتبنها على ظهر كشاكيل المدرسة، قيل إنها هربت من الدير وظلت هائمة على وجهها في صحراء شاسعة بلا طعام ولا ماء لمدة طويلة حتى التقطها إعرابي وأوصلها إلى أقرب قرية، ما الذي أوصلها لتلك الهيئة المفزعة؟ هل هو العشق؟ أم أن عنتر النوبي تخلّى عنها وهرب سريعًا، أخشى أن تتركني يا مرعي لأصير مثل عزة القُمّص، أطلع في بر المناشي كجنيَّة ترعب الصغار، شعرها المنكوش ووجهها الذي امتلأ بالعظم وعيناها الغائرتان في السواد البعيد،

عنتر النوبي سافر وتركها دمية، ألقوها في الدير حيث الوحدة والصمت، لا شيء يبعث على الحياة في صحراء العزب، ترانيم النهاية والموت ترتسم على الوجوه التي هجرت زخرفها وطردت شيطان الحياة وعكفت على تلذذها بالموت، عزة لم تكن ترغب في تلك النهاية، حلمت كأية امرأة بحبيب وبيت وأولاد، لكن تمردها على شرائع المناشي حملها إلى دير واسع داخل صحراء بعيدة وترانيم سماوية لم تفك طلاسمها كي تخرج من الجسد وعشقه الفاني كما نصحها الراهب داوود، لكي تنعم هنا بالحياة عليها أن تتخلص من لذات الجسد، تلك الشهوة الممقوتة، شهوة تكمن في جسد معذب والخلاص هو طريق النجاة وسلوك طريقه لا يكون إلا للمؤمنين الطائعين، السنوات التي مكثتها في الدير لم تستطع أن تروِّض جسدها النافر العاصي ولم يطعها شيطانها الذي نفخ في أوصالها العذاب المبين وصب الألم صبًّا في أطرافها، ليس لهذا الجسد معنى إن لم يتُق ويتألم ويعشق، هذا الجسد أتعبها بما يكفي، لن يمتثل لطاعة الرهبان، جسد تدب فيه الحياة والعشق لا يريد أن يفنى في هذه الصحراء، يريدون منها أن تسلم جسدها للنهاية وهي تأبى وترفض، لم يأن لهذا الجسد أن يصمت ويرضخ، وكلما دخل عليها الراهب المحراب وجدها تبكي وتصرخ حينها جلس يحكي لها أن السيد المسيح كان يسير بين أصحابه، فوجدوا رجلا يقذف بالحجارة إلى السماء ويصرخ: لماذا لا ترزقني؟! لماذا لا ترحمني؟! لماذا لا تكرمني؟! فهمّ أصحاب المسيح به، صرخ فيهم المسيح قائلا: اتركوه.. إنه أكثر إيمانًا منكم.

- اطلبي ما تشائين منه يا ابنتي، إنه أقرب إليك من نفسك، اسأليه أن يعينك على جسدك.

مرت الأيام والشهور صعبة بطيئة على نفسها وكلما أرادت أن تخرج من جسدها عادت إليه، مسكينة عزة القُمّص.. هزمها الجسد العاصي، وحين

دبَّرت أمرها وهربت بمساعدة الراهب الطيب الذي أشفق عليها ورق قلبه لها وأخرجها مما هي فيه عن طيب خاطر، ربما تمنَّى أن تُبعث حياة من جديد في جسدها الزابل، مهد لها طريق الخلاص وأرشدها إلى مدق عبر صحراء ممتدة قال:

- إن كُتبت لك النجاة فهذا طريقك، عودي يا ابنتي طالما هذه مشيئته، الله وحده القادر أن يبعث الحياة للموتى.

خرجت هربًا تستأنس بكلمات الراهب، لكنها لم تدرك أن الجسد الذي دخلت به الدير ليس هو ذاته الجسد الذي خرجت به، تبدل الحال، ذلك الطري الأبيض الناعم المفعم بالحياة والرغبة ذبل وانحنى وبرزت عظامه وخشن جلده، أخيرًا طاب لها المقام في بيت حسنية الحفَّافة كي تجلس معها في انتظار قدوم البعيد الذي ربما لا يأتي أبدًا، حين رآها لبيب القُمّص ذات صباح وهي تقف أمام الباب دفعها بكلتا يديه وهو يصرخ في الناس الذين التفوا حولها:

- ليس لي بنات، عزة ماتت ودفنتها في الدير، هذه جنيَّة من الشياطين.

أخذ القُمّص يردد عبارات التعوذ من الشياطين في وجه ابنته عزة بينما كان إخوتها ينظرون من كوة بالباب وهم يمسكون الصليب ويبكون في أنين مكتوم، وملاك أبيض يطير على الحائط فاردًا جناحيه وهو يبكي، من الذي أغضب هذا الملاك وجعله يبكي هكذا أمام الناس حتى إنهم رأوه على حائط بيت القُمّص، كل أبواب المناشي أُغلقت في وجهها، لم تجد سوى بيت عنتر النوبي.. وحين رأتها أمه حسنية الحفَّافة أدخلتها الدار ونامت في حضنها على سرير عنتر فوق ظهر الفرن البلدى حيث كان النوبي يحب أن ينام، ظلتا هكذا تنتظران الوهم، النوبي الذي اكتفى برسائله لمرعي يحكي فيها عن الغربة والقسوة، مرعي الذي كف عن صعود منبر جامع المناشي، العمدة فتوح ضاق صدره بكلمات مرعي وطلب من الحكومة أن

تحضر خطيبًا للجامع، قعد مرعي في البيت حزينًا، كان يظن أن ما يحدث له هو عقاب من الله لأنه ذات يوم أمسك بيدي ومرر كفه على رقبتي وهمَّ أن يضع قبلة على شفتي، هم بي وهممت به لكنه لم ير برهان ربه، عدل ولم يشق عصا طاعته، مكث يعذب نفسه ويلومها، أرقه الذنب وقد أنساه اللعين ساعتها ذكر ربه فهوى في المعصية وهمّ يعض شفتي في لهفة، قبلة لم أذق طعمها قط ولم أعرف حتى الأن هل لامس شفتى أم أن ما شعرت به كان وهمًا صحا منه مرعي فجأة؟ وحين تذكَّر ما وقع قال: "ما أنساني إلا اللاهى". مكث بعيدًا عني، يبكي كطفل، تمتم بالأدعية وعاقبني حيث قرر ألا يصعد إلى السطح، مرت أيام الجفاء صعبة وأنا أتردد على سطح بيتنا وأتطلع إلى الناحية الأخرى حيث أعواد القطن الناشفة بينما مرعي يجلس القرفصاء يقرأ القرآن في حجرته، يحتجب عن الغواية، كان يخشي أن يراني فأغويه مثلما أغوت سماح حريش تحت عنباية الحاج مفتاح، ضمته إلى صدرها فاشتعل جسد حريش بالرغبة، أحاطها بذراعيه وأدخلها في لهفة إلى عتبات الألق الشهي الموجع، كما حكت لى سماح وهي تكاد تلامس أطراف السماء، كانت المرة الأولى التي أسمع فيها حديثًا كهذا، سماح فتحت لى كوة كي أرى عالما لم ألمسه قط، كل ما كنت أعرفه أن جسدي حرام لا يجب أن يقربه مخلوق أو تراه عين، جسد محاط بالشياطين، لا تعرف صاحبته أغواره وتخشى أن تطل عليه أو تلمسه فتؤجج الفتن، وتنقلب إلى عاصية مذنبة، لم أجرب فتنته ولم أشعل فيه جذوة واحدة وتركته يرقد خاملا. ما حكته سماح فتح لى كوة في حائط صلد، لم أعرف ما يدور خلفه، نمت ليلتي على سريري أشاهد ما حكته سماح وقد رأيتها في كف حريش تحت عنابية الحاج مفتاح، هل كانت عارية تمامًا وكف حريش تمر على ثنايا جسدها، أم كان يمر بشفتيه ليلثم جلدها الطري ويحك أنفه في رقبتها؟ قالت إنه

تمدد داخلها فكان الألم الذي أورثها متعة، قالت: "إن الجسد فنتة فأوغل فيه برفق ومتعته فضاء لن تبلغ مداه مهما صنعت". وحين مرر السبابة على شفتيها المكتنزتين بالحمرة وارتفعت أنفاسه التي لسعت وجهها، قالت سماح إنها غابت عن الدنيا للحظات لا تحصيها، كانت روحها في تلك اللحظة تصعد وقد أشرفت على جنة الخلد التي تتزين للطائعين هناك في السماوات البعيدة، وحين دنا مني واقترب ورأيته هائمًا بين يدى، لم أصدق وقلت كيف ترك عبادته من أجلى، ظننته لن يقترب فاقترب، ظننته لن يمرر أصابعه بين جدائلي ويلسعني بأنفاسه الحارّة ثم غاب، رحل بعد أن اقترب فكان قاب قوسين، وطأ بأصابعه أرضي ومضى بعد أن أودع لذته جسدي، تمددت فيها واخترقت الحجب المطوية، وشعرت كيف غاب جسدي عني، صرت روحًا.. مجرد روح فقط لهذا الجسد، كيف يمنح روحه تلك الحياة ؟ ما دامت الرغبة دام الجسد مشتعلا، لست ممتلئة بالذنوب والمعاصي كي تمكث غير بعيد، كانت تلك أيام المشقة والتعب، غاب عني ولم أره فاشتد أرقي وحين شكوت إلى أمي غمغمت وبكت وصرخت وقالت لى إنه مس من الشيطان الرجيم لمس جسدك النقي، مرعي يا ابنتي قابع في محرابه يصلي، قلت لها يأتيني وأراه وألمسه بوجهه المضيء، صرخت وأمسكت بكفي وأخذت تشدني إليها باكية، وضعت الطرحة السوداء على شعر رأسها وجرت ناحية بيت الشيخ زكريا، لم يغب طويلا، وحين فاجأني وكنت نائمة، أتاني ليلا وحينها فعل ما لا أستطيع عليه صبرًا أو حتى أعرف له وصفًا، دأب على هذا الحال حيث يأتيني ليلا ويهجرني نهارًا كحال الصوفيين، يتنقل بي من لذة لأخرى، يرفع الغطاء عني فأشاهد وأصعد إلى عوالم وكلما علوت ارتقيت، أتعذب لأنني أريده أن يحملني أمام العالمين، وحين طرقت بابه ودخلت أعرض عني فقلت له هكذا وجهًا لوجه:

- لست ذنبًا يا مرعي لتستغفر منه، ما أقعدك عن صعود المنبر ليس ذنبًا، بل العمدة فتوح وأنت رضخت له وخفت من بطشه وقوته.

لم تكن المعصية هي السبب، الله يعاقب الناس ويغفر لهم في الآن نفسه، لكن العمدة فتوح هو الذي يدبر لك الشر، الشر الذي نراه يقع لكن الله لا يريده في ملكه، أما فتوح فيفعل الشر ويريده في بر المناشي، لذا لن يترك سماح حين أرسل لها عويس تكال شيخ خفرائه يطلبها له جسدًا مقابل أونصة من ذهب خالص، سماح لم تتوانى.. صفعت رجل العمدة على وجهه وطردته من بيت العجوز، حق عليها العقاب كما قال العمدة فتوح الذي أخمد بكلماته نارًا تأججت في قلب عويس تكال حين توعَّد سماح، العمدة لم يكن يريد الأذى لسماح حين توعد بالثأر لرجله تكال، رصاصة لا تساوي قروشًا تنحشر في بندقية تكال وتنطلق من فوق نخلة عارية وتشق رأس حريش نصفين وهو جالس على ترعة المناشي يراقب على الضفة الأخرى طريق الخور الوعر، يحلم أن يسير في هذا المدق بمحاذاة ترعة المناشي ويصل بقدمه إلى أرض الخور ووادي الحلفاء التي وصل إليها أبوه صميدة الغابي من قبل، حريش هو الذي يقف حائلا بين العمدة وسماح، والذى فعله حريش ضربًا من الجنون حين رد النصف فدان إليه، النصف فدان كان ثمن سماح وحريش لم يشأ أن يبيعها بكنوز الدنيا، يكفى لمسة من أصابعها التي تمررها على وجهه كلما التقيا تحت عنباية مفتاح حين تكشف له عن مفاتنها ويشرب من شفتيها حتى يدوخ ويقع على النجيلة وسماح إلى جواره ألقت جسدًا طريًّا ترتع فيه الأبالسة والملائكة يتصارعان، ذلك الجسد الذي خلقه الله على هيئة الجمال ومنحه الرغبة وجعل من أوصاله فنتة للناظرين وسخره للفعل ونفخ فيه من روحه فمال كعنقود طاب واستوى على سوقه وللجسد أحوال ومقامات وليس كله شر، تقف على عتباته وتقول: "ما شا الله كان" وإن

اقتربت منه ولمست جسدًا فتوغل فيه برفق ومن صفاته أنه لا يفرق بين غني وفقير فهو يغني بذاته عن غيره، أما المال فها هي كنوز الخور أمامه، يكفى أن يصعد حريش الخور كي يلتقطه ويعم الخير على بر المناشي كله. لماذا تمكث بعيدًا ولا تقترب من جنينة الليمون التي تلامس ثمارها الدانية أرض الجنينة، ادخل لتشم رائحتك فتزهو أزهارها وتكتمل عناقيدها وتتدلى على يديك وإن فيها من النعيم مالا عين رأت ولا أذن سمعت، هذا الجسد يخلص لمن يشتهيه ويعرف أحواله، عويس تكال سيذهب هذه الليلة إلى بيت ذوات الملاح، أخذه جسدها الملفوف تحت الملاءة السوداء التي أظهرت ثناياه، حين رآها أقسم لخفرائه أنه سيقضي ليلته في بيتها مهما كلفه الأمر حتى ولو فقد حياته، بيتها هناك عند الساقية، تجلس أمامه شجرة نبق عجوز دائمًا ما يضربها الأولاد بالطوب ليسقطوا ثمرها، تخرج ذوات بقميصها الأصفر الشفاف وتهش الصغار من أمام البيت وتجرى خلفهم بعرجون المقشة البلح والأولاد يهرعون أمامها في ذعر، زوجها حسن المرادني يذهب للعمل في البندر يغيب شهرين أو ثلاثة ويترك ذوات لوحدتها، ذوات الغجرية التي عرفت كل بيوت المناشي ودخلتها تحمل "بؤجة" الأقمشة والملابس لأولاد المناشي ونسائها، تكال ينتظر حتى يصلى الناس العشاء ويقل السائرون في الشوارع، يضع "الملحفة" الصوف على نصف وجهه ويسير في اتجاه بيت ذوات، بإصبعه يطرق طرقات خفيفة تلتقطها أذن ذوات فتهرع إلى المرآة تسوِّي شعرها وترش جسدها بالعطر وتغمس شفتيها في الأحمر وتذهب على الفور لتفتح الباب.. تظنه حسن قد أتى إليها على اشتياق، أما تكال حين شاهدها حملها على يديه حتى حجرة النوم وناولها حيئذ زجاجة المنقوع لكى تعد له العدة ويشرب تكال حتى لا يعرف رأسه من قدميه حينها تقوم من قبالته وهو يتابعها بعينيه، تفتح الدولاب وتخرج قميصًا ترتديه

برفق، ثم يراها تكال وقد استوت على سريرها بهية كطلع النخل يهم بلا تردد، تصرخ فلا ينجدها أحد من يديه القويتين، يفردها تحته، الغريب أن ذوات كانت تحكي تفاصيل لياليها مع حسن المرادني أمام النسوة الائي يترددن عليها لشراء قمصان النوم، كن ينصتن لحكاياتها وهن يضحكن على ما تحكيه من أفعال حسن معها، تصرخ إحداهن في دهشة:

- كل هذا في النور وحسن يراك يا ذوات.. عيني عينك بلا خجل؟

ترد ذوات في مكر:

- طبعًا "لمبتين" جاز نمرة عشرة يجعلان البيت نهارًا.

هذه المرة جلست أمامهن وفتحت البؤجة وأخرجت قمصانها أمامهن وأعطت لكل واحدة منهن سكينًا وأخذت تحكى ما كن يردنه منها حين حكت لهن ما جرى في ليلة تكال شيخ الخفراء الذي دق باب بيتها وحملها بين ذراعيه جبرًا حتى ألقاها على السرير، كانت تحكي والنسوة يقطعن أيديهن.

كان الشيخ زكريا يقرأ الآيات ويرش الماء في حجرتي، يقرأ المعوذتين وآية الكرسي ويردد الأدعية، أمى كانت تقف عند الباب تراقب فعل الشيخ زكريا وأنا راقدة في سريري.

لماذا تريد أمي أن تخرجني مما أنا فيه وتلقيني في العذاب؟ تظنه شيطانًا وأراه ملاكا، كيف يجتمعان في جسدٍ واحد؟!

(10)
حين أغادر جسدي

الأيام الصعبة التي مرت علىّ في خزان عرنيش الجافي جعلتني أفكر طويلا وأنا سائر على جسر الخور أتنقل بين نخلات عطية ووادي الحلفاء، أسمع فحيح الحيات، لماذا أبقى وحيدًا في الخور رفيقًا للعقارب والثعابين بينما الحياة هنا مليئة بالصخب؟ الحياة في بر المناشي لها طعم آخر، منذ أن تركني الجافي وأنا صغير أهبط إلى بر المناشي وأشاهد الموالد ورقص الغوازي حين تهتز مؤخراتهن على وقع الطبلة وتتمايل معها أعناق الرجال انتشاء، وحين أرسلني عرنيش الجافي خلف سماح لكي أخيفها وأجعلها تنصرف عن لقاء حريش تحت عنباية الحاج مفتاح، لا أعرف لماذا تركتهما يلتقيان؟ هل لأنني كنت أريد أن تكون لى إرادة تفوق إرادة عرنيش الجافي؟ أم أننى تركتهما يلتقيان رغبة مني في أن أشاهد ما سيفعلان في هذا اللقاء؟ وحين رأيت مشهد عناقهما تحت العنباية ورأيت كيف أن زوج الحمام طلا على هذا المشهد فتحركا في عشهما وصنعا معًا ضجيجًا وجلبة، وحينها رأيت صقرًا يطوف في السماء يراقب مشهد العناق. عرفت أن الله أرسل لي هذين الطائرين كى يعلِّمانى كيف أواري جسدي في جسدٍ آخر، تعلمت من حريش الغابي كل شيء حين كنت أرى ما يفعله مع سماح تحت عنابية الحاج مفتاح، تمنيت ساعتها أن تكون لي امرأة مثله، أفعل بها ما يفعله حريش حين أراها تتلوى بين ذراعيه وترتفع أنفاسها وتمنحه لذة لن يجدها إلا في جسد سماح، حين يمر بأصابعه على رقبتها ويلامس شفتيها برفق حينها أعرف أن سماح قد غابت عن الدنيا، ما كان لى أن أفرِّق بينهما كما كان يريد عرنيش الجافي، عصيته لأنني كنت أجلس

هناك حيث لا يمكن أن يراني مخلوق، أتابعهما كل غروب، وحين رأيت سفيرة تفرد شعرها فوق سطح بيت حامد الرديني وقد مال جذع نخلة بيت جنيدي قليلا ليراها من شدة جمال البنت وتحرك ذكر الإوز على السطح نافشًا ريش جناحيه، سفيرة كانت تختلف عن الغوازي التي كنت أشاهدهن في الموالد وهن يرقصن على وقع دقات الطبول وعيون الرجال تنفتح عن آخرها لترى النهود التي تدلت من فتحات الصدور والأوراك العارية تهتز فتحرك الأبدان الملتهبة والعيون الشبقة، لكن سفيرة التي حام حولها الطير في السماء كأنه يرقبها ورأيت على السطح المقابل لها كيف جلس مرعي البرادعي متخفيًا بين أعواد القطن الناشفة يرقبها في صمت، وقلت لماذا لا يمتلك مرعي شجاعة حريش ويواعدها هناك عند عنباية الحاج مفتاح؟! وقتها تمنيت أن تكون سفيرة لي وحدي، ولكن هيهات. ما كان لي أن أفعل هذا وما كان لها، لكن حين طرأت تلك الفكرة على رأسي وهممت وفعلتها واستطعت أن أدخل جسد سفيرة وأمرح فيه وأجعلها تبلغ الثمالة، كنت آتيها ليلا على هيئته وقد ترددت كثيرًا، وكنت سأقع مرة في المحظور حين هممت أن أدخل إليها بصورتي تلك وأصرخ فيها: "إنني مثل مرعي تمامًا يا سفيرة بل أفضل منه، مرعي يرفض أن يدخل حجرتك، أن يلمس سريرك، فعلت ما عجز مرعي عن فعله وتركك صحراء برية أنا رويتها حتى صارت زهورك وأينعت ثمارك، مرعي يقف هناك بعيدًا عن جسدك يرقبك من بين أعواد القطن الناشفة يتلذذ بنظرة شبقة لا معنى لها بينما جسدك يرقد أمامه يدعوه ويستعطفه أن يقترب، ولكن ما حيلة الضعيف الذي يقضي عمره كله في الانتظار دون أن يمتلك إرادة الفعل، الجسد هو الفعل".

تود أن تعذب جسدك لتصير صوفيًّا، تريد أن تتخلص من شهوتك، تريد أن تجعله جسدًا نحيلا لا حياة فيه، تمنعه عن الحياة وهو خلق لها،

الصوفي يهرب بعذابه ويظن أنه يعبد الله ويتقرب إليه، لكن كيف تترك سفيرة يعذبها جسدها ثم تجلس أنت خلف أعواد القطن الناشفة، هذا العذاب لا يجعلك صوفيًّا ولا حتى مؤمنًا نقيًّا، البنت التي رأتني مجرد هواء يلامس أطراف أصابعها، سفيرة التي تصورتني حلمًا، حاولت كثيرًا لكنها لم تكن تشعر بي، حتى حين قصت لأمها جمالات ذهبت وأحضرت الشيخ زكريا ليطاردني برقياه كأنني شيطان، أنا مجرد هواء لا يستطيع أن يفعل شيئًا فقط يلامس أطراف الأصابع أو يحرك فرعًا بعناية الحاج مفتاح ليخيف سماح ويصرفها عن لقاء حريش الغابي، أو أن يضغط على مؤخرة جحش الرديني فيجعله يهيج ويرفس حامد الرديني ويشج بطنه حتى أصرفه عن ضرب ابنته سفيرة بعصا الجريد التي كانت في يده، ليس كل ما أفعله شرًّا حتى يخشاني أهل المناشي ويفزعون من سيرتي بينما لا أمتلك جسدًا مثلهم، ليتني كنت مثلهم، لماذا خلقني الله بلا جسد، مجرد هواء، الجسد هو الحقيقة، هو القدرة والفعل، أنا بلا جسد أصبح عاجزًا، أتمدد في الفراغ كفراغ، أصعد الحجب كدخان، لن تشعر بي سفيرة مهما حاولت، لن تمسك بي مرة أو تمنحني جسدها، أنت تود أن تتخلص من جسدك.. تراه عبئًا وأنا أتمناه، ليتك تمنحني جسدك يا مرعي وتأخذ طاقتي حينها كنت ذهبت إلى سفيرة على قدمين وأخذتها عند عنباية الحاج مفتاح وهناك سيتحرك زوج الحمام في عشهما حين يشاهداني وأنا قابض على خصرها، أستطيع الآن أن أمنحك ملك الخور وأدلك على كنوزها إن منحتني جسدك لأسكن فيه. ما ذنبي كي أتعذب بهيئتي وأظل تائهًا، انظر ما فعله عرنيش الجافي معي حين أنزلني الخزان مرغمًا دون إرادة مني وصب العذاب في هيئتي حتى سمع صراخي أهل الأراضين، جعلني أعض أناملي وأتفتت من شدة الألم، حبسني شهورًا غبت فيها عن سفيرة وأشد ما كان يضنيني هو فراقها، الملعون عرنيش الجافي جعلني

أحكي له كل ما حدث، لم يتركني حتى عرف كل شيء حتى حكايتي مع سفيرة، ضحك وشقلب رقبته القصيرة للخلف واستلقى على قفاه من شدة الضحك، كان يظنني طفلا صبيًّا لا أعرف شيئًا، لكن ما رأيته تحت عنابية الحاج مفتاح علَّمني الكثير، أخذ يهددني ويتوعدني، قال إنه سيخبر سفيرة بما أفعله بها، ضايقني وعيده وقلت عرنيش الجافي يفعل كل شيء من أجل المال وربما يخبر سفيرة فعلا وينقطع حالي، أخذت أستعطفه وأرجوه ألا يفعل، لكنه ماكر ربما يعدني بشيء ويفعل ما يريده، تذكَّرت ما فعلته منذ يومين حين هممت وألقيت الحقيقة في عقل حسن المرادني ووسوست له، كما جلعت عويس تكال ينسى تلفيحته السمراء تحت مخدة ذوات وقلت: يومين ويعود حسن المرادني من عمله بالبندر وحتمًا ستقع عيناه على تلفيحة عويس تكال، أنا لا أحب عويس تكال رسول العمدة فتوح إلى سماح العجوز، وسعدت حين صفعته سماح على وجهه، عويس تكال كان قد نوى أن ينتقم من سماح وأمها وأقسم أن يطردها من بر المناشي، ولولا أنه يخشى العمدة فتوح لفعلها في التو واللحظة، لكنه حتمًا سيدبر لهذا الأمر فكان عليّ أن أتصرف بسرعة، وحين رأيته في سرير ذوات الملاح وقد كشفت له عن مفاتنها كرهًا وبدت كحوريات الجنة تدور بجسدها الملفوف ثم تقع في حجر تكال وهو يكاد يلتقط تفاحها في فمه ويعتصر خصرها الطرى بكلتا يديه وحملها إلى السرير كرهًا، حينها أنسيته التلفيحة ووضعتها تحت المخدة حتى لا يراها.

أما عرنيش الجافي فقد طرأ على رأسي أنه حان الوقت لأشتري رضاءه وتذكرت ما علمته منذ أيام ولم يعلمه غيري.. كنت قد ترددت قبل أن أخبره بما علمته، الأمر أكبر من مجرد انفعال لحظي، هربت داخلي وتمنيت أن أخفي عنه خبرًا ولا أنبئه به إلا حين يقع، ما حيلته مهما امتلك من قوة ومن حيل، لن يستطيع أن يغير من الأمر شيئًا، سيقع المكتوب وتكون

نهاية بيت آل فتوح قد قربت، أما مصير جثة والده الجافي في الخزان فقد وقعت عيني عليها وسأنفذ خطتى في ذلك الجسد، لن تجده نائمًا في الخزان بعد اليوم، سأحمله إلى الخارج وسأمزقه قطعًا قطعًا وألقيها في وادي الحلفاء حيث الثعابين والعقارب، لن يبقى من جسد الجافي شيء، سيكون طعامًا لسكان وادي الحلفاء بعد أن صار جسدًا ميتًا لا يهابه أحد ولن يخشاه مخلوق، أما عرنيش الجافي فلن يستطيع أن يفعل شيئًا، مجرد قطرات من دموع سيذرفها عليه وعلى ما حدث لجسد أبيه، نظرت إليه وقلت له:

- هل تعدني أن تكتم أمري وأخبرك بأمر لا تعلمه؟

- أمر.. أي أمر يا ملعون؟ قل ماذا تخفي عني.

- تعدني أن تطلق سراحي.

- تريد أن تذهب إلى بيت حامد الرديني لترى سفيرة.

- يجب ألا تخبر أحدًا بهذا الأمر.

راح يفكر في الأمر، ثم نظر ناحيتي وقال:

- قل ما عندك.. إن كان يستأهل سأفعل ما تطلبه.

- أعطني جسد مرعي البرادعي وأمنحك كل شيء.

صعقته كلماتى، انتفض واقفًا وسدد لى نظرة قاسية لم أرها في عينيه من قبل:

- أنت مجنون.. جن عقلك بالبنت سفيرة حتى نسيت من أنت.

قلت إننى كنت أقترب من السموات كعادتي، أقترب بحذر من عوالم الغيب المطوية بعيدة عن الخلائق هناك، حيث لا قدم تصل، بعيدة بعد السماء عن الأرض، ظللت أصعد وأحاول تجنب الشهب الصاعقة، كانت تدفعني رغبة ملحة لمعرفة الأسرار لكي أفك طلاسم بعض ما يغيب عنِّي، فتحت مسامعي كي أسترق السمع وأعرف ما سيقع هناك في المستقبل

الذي لا يعرفه أحد، أدركت أنني واقع في زمن بعيد وأن الخطر لا شك محدق بي، وأننى يمكن ألا أعود من تلك الرحلة وتكتب نهاية كل من يكشف حجب الغيب المستورة عن المخلوقات جميعًا، كانت روحي في تلك اللحظة مشدودة للمغامرة مثل كل كائن يريد أن يسمو على طبيعته ويخرج عن المألوف والمعتاد ويمسك عقارب الزمن كى لا تدور وتقف عند لحظة واحدة، كنت هناك أرفع مقامي وقد شعرت بالملل وكنت مهمومًا بأمر سفيرة وأخذت أسترق السمع فإذا بي أقع على خبر هام لن تصدقه يا عرنيش، سوف أنبئك بما لم تحط به خبرا، كنت تصور لي أنك قادر على كل شيء وأنك بتعويذاتك التي تحفظها عن أبيك ملكتني وملكت أمري وصرت لك عبدًا، لكن ها أنا عمَّا قريب سأتحرر منك ومن سلاطة لسانك، تبكي الآن وتتوسل إليّ وتحاول أن تقنعني أن أبوح لك.

- ماذا سمعت يا ملعون، لا يجب أن تخفي عني شيًئا مما علمت؟

راح يستدرجني حين قال لي:

- اسمع.. هل هو أمر يخص بر المناشي؟ وادي الحلفاء؟ الخور؟

تابعت انفعاله بالصمت مما جعله ينفجر صارخًا في وجهي وأنا معلق أمامه على حائط الخزان، صرخ:

- لن أطلق سراحك حتى تخبرني بما علمت، هل هو شيء يتعلق بملك فتوح؟

ضحكت ساعتها وقلت له:

- وجسد مرعي الذي طلبته؟

- سيكون لك.. لكن دعني أفكر في الوسيلة لذلك، قل ما عندك.. هيا.

- ملك بيت فتوح سيزول.

قلبه انخطف وعلا صياحه:

- معقول.. العمدة فتوح سيترك العمدية وسيزول ملكه عن بر المناشي!!

- نعم.. هذا ما علمته وتيقنت منه.
- متى يقع القدر يا ملعون؟
- لا أعرف عدد السنين والحساب، لكنه حتمًا سيقع.
- ويعود الملك لبيت خروشة؟
- لا يا عرنيش.
وقعت الإجابة على عرنيش كالصاعقة..
- ماذا تقول؟ بر المناشي لن يكون لبيت خروشة. لمن يكون بر المناشي؟!
نكست رأسي وقلت له إنني حاولت أن أعرف لكن الحراس تنبهوا لوجودي فأتبعوني بقذائف من اللهب والشهب وهرعت أجري من الخوف، ولم يكن باستطاعتي أن أعرف شيئًا أكثر.
عرنيش ضرب كفًّا بكف وهو لا يكاد يصدق ما أخبرته به، وحين رآني حزينًا مترددًا لا أستطيع الكلام قفز من مكانه صارخًا في وجهي:
- لن أخرجك من الخزان حتى تقول لي كل ما علمته.
قلت: سيقع هرج ومرج في بر المناشي وسيكون العراك والحرب والموت، وسيجتمع الناس في صعيد واحد حتى يزول الملك عن فتوح وعن خروشة.
وحينها ترددت كثيرًا لكنني كنت قد عزمت أمري وقررت أن أضعه في لعبة محكمة أمتلكها وحدي ولا يلعبها سواي جزاء حبسي في الخزان وجزاء ما نالني من عذاب، اقتربت منه حتى كدت ألسعه، تنبَّه وابتعد قليلا:
- تريد أن تحرقني؟ قل ما عندك هيا وإلا حبستك هنا طوال عمرك.
تغير لونه وتعكر صفوه وبدا الفضول لمعرفة الخبر، كاد يقتله وأنا أحبك الأمر وقلت ربما لا يصدقني، حين تابع صمتي وخوفي قال:
- قل ما عندك وإلا عاقبتك بعذابي.. هيا.

حينها لملمت خيوط الفكرة وعزمت على أن أضعه في تيه عظيم لا يخرج منه أبدًا، تيه مثل التيه الذي أدخلني فيه، قلت سأخبره بأمر لا ينفع معه أي تدبير، صمتُّ برهة وقلت:

- الأمر يخصك أنت.

تمددت الدهشة على فمه..

- وما هو؟

تملكت الشجاعة وقلت:

- من ضمن ما استرقت سمعه نهايتك يا عرنيش.

- نهايتي أنا، وماذا علمت؟

- ستكون نهايتك في ترعة المناشي.

- معقول.. أموت غرقا في ترعة المناشي، كيف؟

- صدقني لا علم لي.. لكني أخبرتك بما علمته.

ضرب كفَّيه وصاح وأخذ ينادي على راجية وهو يبكي، بينما كنت فرحًا لأنني أوقعت به ورميت خيوطي حوله وجعلته رهن إرادتي، فقد توسل إليّ واستعطفني وأخذ يرجوني أن أصعد إلى هناك حيث السماوات والشهب وعالم مسطور بالغيب ومحفوف بالخطر، طلب مني أن أحدد له الساعة والوقت، لكن زوجته راجية حين سمعت بالخبر هزت رأسها وقالت في هدوء:

- وما يغضبك ويحزنك مما قال؟

صرخ عرنيش في وجه راجية البارد:

- إنه يتحدث عن نهايتي.. موتي في ترعة المناشي.

- كلنا سنموت يا عرنيش، أما عن ترعة المناشي فالحل بسيط.. لا تقترب منها أبدًا.

حينها ضحك عرنيش الجافي حتى ظهرت أسنانه بعد أن أعجبته الفكرة، من الآن لن يقترب عرنيش الجافي من ترعة المناشي، وبهذه الحيلة سيتجنب النهاية المحتومة التي رسمها له القدر هناك في عالم الغيب، ضحك مسرورًا بالمخرج الذي وجده، لكن رغم هذا ارتسم على وجهه خوف وهلع بينما كنت أتطلع من فوق أرض الخور على بر المناشي وقلت متى يكون ملك المناشي لي؟ أنا أحق المخلوقات بملك المناشي، صرخت في الهواء المتدفق على نخلات عطية: سألقي على كرسيه جسدًا وأكون شيطانه الذي استرد ملكه، أربعون ليلة أكون فيها ملك المناشي ومن حولها، لا تخافي يا سفيرة، حين أقبض بيدي على هذه الأرض وأكون سيدها وأقذف عرنيش الجافي في بطن نخلة الرديني ويصير نسيًا منسيًّا لأنني سأسجنه للأبد، ولن يخرج منها أبدًا إلا كرأس شيطان، حينها ستكونين سفيرتي إلى بر المناشي، تحملين رسائلي إليها وتتحدثين باسمي، سأسكن جسدك ولا أتركه، أما ما يجرى هناك بعيدًا عن أعين أهل المناشي.. هناك في الخور، سأطلق الأفاعي والحيات لتمرح على راحتها، أنا سيدها وسيد أرض المناشي كلها.

(11)

مرعي

لم أفلح أن أصبح عاشقًا يتمنَّى سفيرة ويدخل جسدها، يعانق روحها، كنت تريدها لكنك هربت، ظننت أنك ستهرب من جسدك لتكون صوفيًّا يخلص للنور ويتخلص من فضلات اللذة التي هي من صفات الجسد البالي، لذت بالفرار داخلك، أن تكون صوفيًّا يروض جسده ويتخلص من شهوته وينتقل إلى أرض فسيحة، أرض تتسع لأشواقه وعذاباته، أرض مثل أرض الخور ووادي الحلفاء حين وصفها لك حريش الغابي من كلام أبيه صميدة الغابي، كنت تريد أرضًا مثلها تكون أول من يطأها بقدمه، لكن ها هو حريش الغابي سبقك، كنت تظنه تافهًا يجري خلف سراب لأنه عشق جسد سماح وسكن عنده واستعذب البقاء فيه، أنت أهنت جسد سفيرة، شهقت حين لمست جسدها خوفًا كأنما مسك الشيطان، جسد سفيرة ليس شيطانًا، بل مشكاة في ماء، الماء في البحر والبحر مطوى بسبعة أبحر، وما كان جسد سفيرة حرامًا عليك، عنتر النوبي الذي يجلس هناك الآن على راحته في بلاد الحجاز، كان يردد في رسائله التي يبعثها إليّ باستمرار عن الحرية، كان يرددها كثيرًا حين كان يصف لي حياته هناك تحت شمس حامية في الحجاز، ربما لأنه تعرَّف على مصريين هناك، كان فرحًا حين قال في رسالته الأولى إن أحدًا هنا لا يسأله عن ماضيه، عرفت ماذا يعني؟ كان يود الخلاص من تركة ثقيلة على نفسه، قال إنه يسير هناك على الرمال الساخنة على راحته مع رفقاء الوطن، كان حديثه عن المال كثيرًا، في الأيام الأخيرة قلَّت رسائله، أمه حسنية الحفَّافة كانت تأتيني باستمرار تسأل عن رسائل عنتر وحين أخبرتها بأنه تأخر قليلا في إرسال الرسائل قالت:

- أنت الذي تخفي رسائل ابني عني، سوف أذهب للعمدة فتوح وأشتكيك، أنت تحجب رسائله وتسرق ماله الذي يرسله لي، خذ المال واقرأ لى كلامه.

مرت شهور بطيئة على النفس، لم أعد أصعد منبر جامع المناشي، أجلس بالساعات في حجرتي، أقرأ القرآن وأدعو الله أن يغفر لى ذنوبي الكثيرة فقد تجرأت وأمسكت بكف سفيرة ومررتها على فمي، بعدها كان عقاب الله رادعًا، جاء عويس تكال.. خفير العمدة فتوح وأخبرني أن الحكومة أرسلت خطيبًا لجامع المناشي وقعدت في البيت أستغفر لذنبي، لو لم أصعد سطح البيت وأرى سفيرة ويطير عقلي لما حدث لي ما حدث. وها أنا أعتكف وأبتعد عن لهو الدنيا، وأبي الذي كان يريدني أن أرث صنعته في برادع حمير المناشي، أدركه اليأس بعد أن تأكد من انصرافي عن مهنته، يكفي ما نزل بي من نوازل، حطمت رأسي رغم أن عنتر النوبي مات هناك في أرض الحجاز على أثر سيل عظيم ابتلع سيارته بمن فيها، جثمانه رقد هناك أسبوعًا ينتظر جمع النقود التي تعيده إلى وطنه كي يدفن فيه، لكن جثمانه لم يعد، أمه حسنية الحفَّافة رفضت أن تصدق بموت ابنها الوحيد عنتر النوبي أو تسير في جنازته، قالت إنها تنتظر عودته من الحجاز، أما عزة القُمّص فقد هامت على وجهها في طرقات المناشي على وقع سماعها الخبر، ظلت غائبة عن الوعي أيامًا لا تفيق إلا لثوانٍ، وحين أفاقت من سباتها ذهبت إلى ترعة المناشي، كان هذا أول لقاء جمعها به، عزة القُمّص قالت لمن حولها إنها رأت عنتر النوبي عند ترعة المناشي يستحم، أقسمت أنها رأت ذلك بعينيها وكان وجهه بدرًا ضرب الماء النائم في الترعة بقدميه ويديه وعبر الترعة أمامها، حسنية عندما سمعت ذلك من عزة القُمّص ذهبت إلى ترعة المناشي ونامت هناك على شاطئها، وعادت لتقول إنها رأته يعبر الخور متجهًا إلى وادي الحلفاء وكان مبتسمًا يرتدى البياض،

قالت إنها تنوي أن تصعد الخور خلف ابنها، بعض أهالي المناشي رووا تلك الحكاية وسمعتها بنفسي من بعض الفلاحين العائدين من حقولهم، يجرّون بهائمهم خلفهم قالوا: "شاهدنا عنتر النوبي يدخل الخور وحده وهو يرتدي البياض والطاقية الشبيكة على رأسه". وحين صحت المناشي كلها على صياح الولد صبحي وهو يقسم أنه رأى جسدًا عائمًا يطفو على سطح مياه ترعة المناشي، جرى الناس ناحية الترعة.. الكبار والصغار، الكل شاهد فعلا الجسد المسجى بالبياض وهو يطفو على مياه ترعة المناشي، جسد ضخم مقلوب على وجهه وذراعاه مفرودتان ويرتدى البياض، كانت حسنية الحفَّافة تصرخ.. "ولدى". قلت في نفسي.. معقول؟ تحدث تلك المعجزة ويأتى جثمان عنتر النوبي إلى أرض المناشي بعد أن حالت نفقات النقل من الإتيان بجسده ليدفن في تراب المناشي، لو حدث ذلك ستكون آية ومعجزة وسيشهد الجميع أن ما حدث هو من فعل عزة القُمّص التي عادت من الدير وعبرت الصحراء القاحلة بمفردها بعد أن رعاها ملاك طيب وأوصلها إلى بر المناشي، ولابد أن هذا الملاك رق قلبه لها حين رآها وهي تذرف الدموع وتطلب من الله أن يرد إليها جسد عنتر النوبي حتى تقر ولا تحزن، همَّ الملاك الطيب وفى طرفة عين حمل جسد عنتر النوبي ووضعه في ماء ترعة المناشي لتكون للناس آية ويدركون تلك المنزلة التي وصلت لها عزة القُمّص، فلابد أنها وصلت إلى منزلة القديسين.. بينما شاهد الناس صراخ راجية وهي تلقي ما تحمله على رأسها وتجري ناحية الجثمان الطافي فوق المياه، راجية خبطت على صدرها وصرخت:

- هو جثمان زوجي عرنيش الجافي، أنا متأكدة أنه هو عرنيش. صدقت نبوءة الملعون، لماذا اقتربت من الترعة التي فيها نهايتك؟ اعتدت منذ شهور أن تتجنب المرور بجوار الترعة المشؤومة.. لماذا الآن يا عرنيش؟ ألم أنهك عن الاقتراب منها؟

بعض نسوة المناشي ذهبن ليهدئن حسنية الحفَّافة التي كانت تصرخ هائجة تريد أن تلقى بنفسها في الترعة خلف الجثمان العائم تظنه ابنها، ونسوة ذهبن ليهدئن راجية زوجة عرنيش الجافي التي تضرب بكفها على وجهها وعلى صدرها وتشهق، مضت الساعات بطيئة حتى يأتي العمدة أو شيخ خفرائه عويس تكال، لا أحد يريد أن يقترب من الجسد العائم على ظهر الماء، وكلما جرى به الماء سار الناس خلفه، بعضهم يكبر لتلك الكرامة وبعضهم امتحن إيمانه لأنه غير مصدق أن تكون هذه آية لأهل المناشي حتى يزدادوا إيمانًا وتقوى، تنفس الناس الصعداء حين شاهدوا العمدة فتوح قادمًا على ظهر حماره الحصاوى وبعض خفرائه حوله، تراجع الناس ليفسحوا طريقًا لحمار العمدة بعد أن دفعهم الخفر إلى الخلف، وقد أمر العمدة واحدًا منهم أن ينزل ويجر الجثمان إلى الجسر، حين نزل الخفير صرخت حسنية الحفَّافة فيه:

- على مهلك يا بنى.. إنه ولدى، لا تتعبه ولا تلوي ذراعه.

سبح الخفير في الماء حتى وصل إلى الجسد العائم، نجح أن يمسك بجلباب الجثمان وبدأ يجرّه ناحية الجسر رويدًا رويدًا والناس تتابع في صمت مهيب كأنه يوم القيامة، حمله من إبطيه ليرفعه ويقترب به من الجسر بينما هرع بعض الأهالى لمساعدته في رفع الجثمان، حين وصل إلى الجسر كانت تصرخ:

- لا تزعجوه فيصحو من رقدته، اتركوه نائمًا حتى يستيقظ متى شاء؟ هكذا كان يطلب مني حين يعود مرهقًا من عمله.

بينما كانت راجية تحثو التراب على رأسها وتصيح، نجح الخفير في إخراج الجثمان من ماء ترعة المناشي بمساعدة زملائه من الخفر، هرعت راجية نحو الجسد في هلع لترى زوجها عرنيش الجافي، وحينها قلب الخفير الجثمان على ظهره حتى يرى الناس وجهه، ولما رأوه وجهه صرخوا ،صرخ

الرجال وهمهمت النساء ونزل العمدة عن حماره،جلس على ركبتيه بجوار الجثمان، حمله على يديه غير مصدق أن يكون الذي بين يديه هو جسد أقوى رجاله، شيخ خفرائه عويس تكال، كان يشبه العجوز والد سماح في بأسه وقوته، لم تنم المناشي كلها في تلك الليلة. من قتل عويس تكال؟ القاتل خنقه بالتلفيحة السمراء وبعدها رمى جثمانه في ترعة المناشي، كان يظن أن التيار سيجرفه إلى مكان بعيد وتختفى معالم جريمته، لكن الريح كانت بطيئة وسريان الماء في الترعة كان هادئًا، العمدة فتوح بدا على غير عادته مرتبكا، ربما يظن كل الظن أن بيت خروشه هم من قتلوا عويس تكال وأنها رسالة للعمدة فتوح ونذير شؤم يعنى أن دوره اقترب، وطالما استطاعوا أن يصلوا إلى شيخ خفرائه فمن السهل أن يصلوا إلى العمدة نفسه، العمدة شدد الحراسة على بيته ويقال إنه أسرَّ لأحد خلصائه أن أيام الصراع قادمة على المناشي، وأن الأيام العجاف قادمة لا ريب، وأن عرنيش الجافي حين أسر له بضرورة أن يحتاط كان لكلامه معنى، فربما عرف شيئًا من ملكوت الغيب وإلا كيف تنبأ بذلك؟ وها هي البداية.. مقتل عويس تكال أفضل المقربين له وشيخ خفرائه ومستودع سره، حتى إنه لم يجد غيره ليرسله إلى بيت سماح ليطلبها لنفسه، على الفور طلب العمدة إحضار عرنيش الجافي لدوَّار العمدية، عرنيش الجافي لم يذهب إلى ترعة المناشي ليرى الجثمان وهو يطفو على ماء الترعة، لم يذهب الجافي ككل الذين ذهبوا خشية أن يلقى نهايته، أما ذوات الملاح فقد جلست في قعر بيتها ولم تذهب إلى الترعة، كانت مشغولة بعودة زوجها حسن المرادني، تهيئ نفسها ليوم عودته، تضع المفرش الجديد على السرير وتمسح خديها بالبودرة وتغرق شفتيها في الأحمر، تلقي شعرها على كتفيها وترتدي قميصًا دون حمالات صدر، تنتظره على باب البيت، حكت ما جرى لها في تلك الليلة العجيبة أمام نسوة المناشي كعادتها وهي

تُخرج من بؤجتها أصناف القماش الساتان وأصنافًا من قمصان النوم القصيرة. أمسكت واحدًا منها وقالت كان مثل هذا تمامًا حين دلف من الباب. قالت إنها تشعر دائمًا بأن حسن سيأتي بجسده مشتعلا، لن يفكر إلا في المشهد الذي تركها عليه آخر مرة، كانت ترتدي القميص الأصفر ذا الوردتين.. يشف القميص عن نهدين بارزين في استدارة لأعلى، وفى الأسفل ينحسر قليلا حتى رأى حسن المرادني ما دعاه لأن يلقي بالثلث المتبقي من السيجارة الكليوباترا وينفث دخانها في وجه ذوات، كان دائمًا ما يحرك المفتاح في قفل الباب، يفتحه ويضع الكيس البلاستيك الذي يحمل فيه ملابسه المتسخة بجوار الباب، يُخرج فقط لفة الجلاش التي كانت تحبها ذوات، يدخل إلى حجرتها المضاءة بلمبتين جاز نمرة عشرة، يجدها في انتظاره، يضع قطعة من الجلاش في فمها، تذوب ويذوب معها حسن في جسد ذوات، لكن يده هذه المرة امتدت عن غير قصد ووجد شيئًا غريبًا.. وجد تلفيحة سمراء ليست له لأنه لا يحب أن يلف رأسه بها، أدرك أن رجلا غريبًا استغل انشغاله بعمله في البندر ولعب برأس ذوات وتمرغ في سريره، توقف فجأة عن حراكه، سحب جسده النافر وتكوَّر في مؤخرة السرير كأنه ينسحب من مهمته، فتحت ذوات عينيها لتجده يشعل سيجارة كليوباترا:

- مالك.. تريد القميص الأصفر؟ حالا أكون جاهزة. قلت ربما تحب التغيير.

أمسك قدمها التي لمست كفه وقال:

- فعلا يا ذوات أريد التغيير.

- كما توقعت مزاج عالي.

- اسمعى يا ذوات.. أريد أن آخذك ونرحل من هنا إلى مكان آمن.

تلقت ذوات كلامه بفرح، هزت جسدها العاري وجذبت ملاءة السرير لتلفه بها، ثم جذبت طرف السيجارة من يد حسن ووضعتها في فمها

الغارق في الأحمر، نفثت دخانًا كثيرًا وقالت:
- نذهب إلى البندر، البندر كما سمعت جميل، وحياته مريحة بعيدًا عن المناشي ونسوانها الغلابة.
- لا.. البندر زحمة وموت وسيارات، أريد أرضًا جديدة.
تعجبت ذوات.. سحبت قدميها، كانتا تواجهان رأس حسن، ولفَّت جسمها لتعتدل في جلستها، شدت الملاءة نحو قدميها العاريتين.. فانحسرت عن صدرها، خرج فجأة أحد ثدييها عاريًا، دفسته سريعًا تحت الملاءة، قال وهو يشد نفسًا من السيجارة الكليوباترا ويده تفرك إصبع قدمها الصغير برفق من تحت الملاءة.. جعلها تشعر برعشة تسري في جسمها الملفوف بملاءة السرير:
- نصعد أرض الخور ووادي الحلفاء.
طرف الملاءة أفلت من يدها وسقط على الأرض، لم تنتبه.. فجأة ظهر جسدها عاريًا ولم تستطع أن تنحني لترفع طرف الملاءة وتستر جسدها بعد أن انتابها الشك في عقل زوجها حسن المرادني الذي يريد أن يصعد الخور. اهتز نهداها أمامه وهي تصرخ في وجهه بعد أن نفخت في لمبة الجاز لتطفئها وتبقى الأخرى بإضاءة خافتة:
- نصعد لنعيش مع العقارب والثعابين، أرض الخور التي يسكنها الجن وتمرح فيها العفاريت.
انتبهت إلى أنها تقف عارية، شدت عباءتها الخضراء من فوق الشماعة، قام حسن وجذب العباءة من يدها وتركها كما هي.. صرخت:
- اتركني كي استر جسدي، أنت مجنون، لست حسن الذي أعرفه.
لم يدعها ترتدي العباءة لف يديه حول خصرها الطري وجعل وجهه قبالة وجهها بالضبط، نفث دخان سيجارته في وجهها، الدخان اقتحم ملامحها المضطربة وتحولق حول وجهها، ثم ألقى عقب السيجارة من

يده بعصبية:
- ماذا أخذنا من المناشي غير الفقر والجوع؟ فى المناشي إما أن تكون سيدًا أو عبدًا. نحن هنا لسنا أسيادًا على هذه الأرض، عشنا عبيدًا.. عبيد الفقر والعوز.
سحبت جسدها العاري من بين يديه اللتين قبضتا بقوة على خصرها، خافت من ملامح وجهه الغاضبة، استطاعت أن تتملص من قبضته، مالت على وجهه، وضعت قبلة لتهدأ العروق النافرة..
- أنت أجمل نساء الكون.. بيتيى وسكني، وإذا كنا سويًّا في أية أرض ستكون جنة بالنسبة لى. هيا نصعد إلى الخور، أرض الخور بها نخلات عطية، نأكل من رامخها وبلحها إذا طاب، ونشرب من ترعة المناشي، الفاكهة كما قال حريش الغابي تتدلى عناقيدها على الأرض، لم يعد لنا عيش في المناشي.
جرى ناحية السرير.. قبض بأصابعه على التلفيحة السمراء وجرى ناحية الباب، جرت خلفه ذوات لكنها لم تستطع أن تلحق به ولا أن تتبين وجهته.
هل أمتلك شجاعة حسن المرادني وأحمل سفيرة معي إلى أرض الخور حيث وادي الحلفاء، حريش يتحدث في كل مكان أنه وجد جاموسة أبيه التي أخذها الجن إلى هناك وصعد والده الغابي خلفها، لكن صميدة مات بعد أن رجع من الخور، لم يعش سوى أيام، الناس في المناشي يرددون كلام عرنيش الجافي، قال لهم إن حريش ستكون نهايته مثل أبيه، سيموت عمَّا قريب، كل من تطأ قدمه أرض الخور سيموت، لن يعيش حريش، لكن من يصدق عرنيش الجافي، المناشي تتحدث عن النبؤة التي ذكرتها راجية زوجته، قالت إن عرنيش الجافي سيموت غرقًا في ترعة المناشي، أهل المناشي رأوا عرنيش لا يقترب من الترعة أبدًا، يلف المسافات الطويلة على

قدميه لكنه يرفض حتى أن يقترب من جسرها، أهل المناشي يتندرون حينما يرونه سائرًا في طرقات المناشي بعيدًا عن الترعة.

لو كان باستطاعتى لحملت سفيرة معى وذهبنا لنعيش هناك في أرض الخور بعيدًا عن أبيها حامد الرديني الذي يرفض زواجى بها لأنني ابن مفرح البرادعي، فى الخور سيكون الناس سواسية كما يردد حريش الغابي، حتى عنتر النوبي يمكنه أن يتزوج عزة لبيب القُمّص التي صارت قديسة يذهب إليها الناس لقضاء حوائحهم وهم يسألونها الدعاء في النوازل، قال حريش إنه رأى هناك في الخور عنتر النوبي يقرأ أشعاره التي كتبها في عشق عزة القُمّص، وقالت حسنية الحفَّافة إنها ستصعد الخور خلف ابنها عنتر، وقالت عزة القُمّص فَرِحة: "هناك حين أراه سيرد لى جسدي الذي نفق، سأعود جميلة كما كنت، وجسدي الناشف ستدب فيه الحياة من جديد، سيعود جسدي الفائر إلى سيرته الأولى طريًّا ناعمًا ليسكنه عنتر بسلام، لم يكن بيدى ولم أستطع أن أقدم جسدي زادًا لغيره، سأعود كما كنت.. فاتنة المناشي ووجهها الصبوح، من نظر إلى عيني سحر، ومن رآني فتن، أنا عزة ابنة المناشي.. وجه القمر الصافي سيرد إليّ جسدي، تلك هي نبوءة الراهب داوود الطيب أيام سجني في دير العزب، حيث الشمس والحرقة والعذاب ومحاولات لقتل الجسد الحي.. وباءت كل المحاولات بالفشل، لكنها خلَّفت خسائر ونتواءات وتجاعيد، سأغسل جسدي في ترعة المناشي وحين أهبط الترعة يفور موجها وتقفز حيتانها وتنتشي أعواد البوص التي أداري جسدي فيها عن الناظرين، لن يكون هناك دير ترقد فيه عزة كقطة مريضة حتى تنفق، ثم حين يتأكدون من موت جسدها يضعونه في صندوق خشبي محكم الغلق وينزلونه ليوارى بعيدًا في ظلام حجرة ساكنة باردة لا حياة فيها".

لماذا لا يكون الخور ووادي الحلفاء هو ملكوت الله الذي نبحث عنه هنا في بر المناشي ولا نجده؟ قالت القديسة وهي تحكى لجلسائها ومن مسهم الضر: "انظروا.. ملكوت الله نصب أعيننا هناك في الخور، حين نصعد إليه لن يظلمنا أحد، لأنه لا ظلم في ملكوت الله وجنته التي هجرها جدنا ونزل إلى بر المناشي، من أراد من أهل المناشي أن يصعد إلى أرض الخور عليه أن يتخلص من معاصيه أولا، هذه الأرض لن يدخلها عاصٍ حتى لا يقول لنا الرب ثانية.. "اهبطوا منها جميعا". اخرجوا من بيوتكم بلا معاصي وتعالوا لنصعد جميعًا إلى ملكوت الله الفسيح ..هناك حيث وضعه الله في أرض الخور".

خرجت رمَّانة العامية من بيتها تتكئ على عصاتها .. تمشي في شوارع المناشي التي تحفظها وتسير فيها دون معين، حين وقفت على باب حريش الغابي وطرقت عليه بعصاتها خرجت لها أمه هداية، ضحكت رمّانة العامية وقالت لها: "أريد قميص ولدى يا هداية، حريش حين صعد الخور أحضر معه قميص ولدى، دعيه يلقيه على عينى ليرتد إليّ بصري". احتضنتها هداية وطلبت منها أن تجلس..

- أين ابنك حريش يا هداية؟ أريد أن أصعد إلى الخور معه لألقى ابني الذي قتله خفراء فتوح في فدان البوص. اسأليه يا هداية.. هل سيرد الله لى بصري في الخور لأرى ولدي؟ أنا لم أرتكب إثمًا ولم يرتكب ابني معصية، هو ذهب ليحضر لي طعامًا لكنه لم يعد منذ ذلك الحين.

أعرف أن حريش ولدك رأى ولدي حين صعد الخور، اطلبي منه أن يحملني معه إلى الخور .

بكت هداية.. بينما عادت رمّانة العامية إلى بيتها كي تعد نفسها للصعود.

(12)
على خطوات أبي في الخور

كنت أبحث عن موضع خطواته التي خطاها هنا على أرض الخور، تلك الخطوات التي ظلت حديث المناشي كلها لسنوات وسنوات، بضع خطوات قليلة خطاها صميدة الغابي.. لكنها حملت أحلامًا كثيرة لأهل بر المناشي، مازالت حكايات صميدة الغابي عن رحلته إلى أرض الخور على ألسنة الناس حتى الآن رغم مرور كل هذه السنوات على وفاة أبي، الناس هنا في بر المناشي لا يملّون من ترديدها في مناسبات عديدة، منذ أن عاد صميدة الغابي من الخور وحكى للناس عن بعض ما رأى وسمع في الخور وادخر لزوجته هداية الكثير من الخبايا خشية ألا يصدقه الناس، قالت لى أمى ذلك وهي تروي لى ما وقع وشاهده أبي في الخور وحجبه عن الناس، حلم الناس في الصعود إلى الخور يكبر ولا ينقطع حديثه في بر المناشي، هو حلم لا ينتهي، وأنا الذي تربيت ونشأت في بيت صميدة الغابي، تربيت على حكايات أمي هداية التي لم تكف عن ترديدها على أذني منذ أن كنت طفلا صغيرًا في المهد، أنام على حكايات أبي ورحلته إلى أرض الخور، حيث قابل الحور العين وملأ عينيه بجمالهن حتى ثمل، وضعن في كفه رائحة الجنات ووقع في أذنه هدير مياه رائق، وصف لأمي أجسادهن المسجاة ببردة النعيم، لكنها نسيت وانمحت من ذاكرتها وصفهن عمدًا، حلمي في الصعود إلى الخور بدأ بسيطا مع نمو أصابعى واكتمل في رأسي حتى صرت شابًا يافعًا، أحلم أن يأتى اليوم الذي أصعد فيه الخور لأرى الحوريات، أسير على خطاه قدمًا بقدم، لم تصدَّني عن الصعود نبوءة عرنيش الجافي التي تطارد كل من يحاول الصعود إلى أرض الخور، ذلك

هو قانون المناشي الذي يسير على الجميع، والموت هو نهاية كل من يحاول النفاذ من سياج المناشي الحديدي والولوج إلى حلم الصعود، سياج المناشي المحمي بالنبوءات والخفايا والرهبة والموت وحكايات الأطفال التي تولد معهم والتى تكبلهم وتملأ نفوسهم رعبًا من مجرد ذكر أحوال الخور، أرض الحيات والثعابين ونخلات عطية والشوك الإفرنجى، أرض الجن والكنوز والخبايا، لن يسمح لك العمدة فتوح أن تطأ قدمك أرض الخور، تلك هي النهاية التي كانت تنتظرني مثل نهاية أبي، لكنني لم أكن أعرها أي اهتمام، سماح كانت تصرخ في وجهي كما صرخت هداية في وجه صميدة الغابي قديمًا، لكن هداية لم تفلح في إثناء صميدة الغابي عن الصعود، كانت رغبته في الصعود تكبر داخله وتتعاظم حتى أعمت عينيه عن النهاية، ربما كانت لذة الصعود أكبر من الخوف.. من الموت، يكفى المرء دائمًا أن يحقق حلمًا في حياته، وربما يكفيه قسط من اللذة يحصل عليه حتى يضحي بنفسه، مثلما تنتحر الحيتان حين تبلغ مأربها من الرحلة.. أو ربما يكون الموت هو الثمرة التي يقطفها كل من صعد، لا يمكن أن نحيا دون حلم، وربما يدفع الناس أثمانًا باهظة لتحقيق أحلامهم حتى ولو كانت مجرد سراب. العظماء من البشر هم الذين يقتحمون المجهول ويصعدون السلم إلى نهايته، كنت أعرف أنني يومًا ما سأصعد إلى الخور حتى ولو كتبت نهايتي بيدى هناك في الخور كما تنبأ عرنيش، المدهش أن عرنيش الغابي أصبح ضحية النبوءة التي تحدثت عن نهايته، نهاية عرنيش كما تقول النبوءة التي رددتها راجية على نسوة المناشي، نهايته ستكون غرقًا في ترعة المناشي، قالت سيأتي يوم يشاهد فيه الناس جثة عرنيش الجافي وهي تطفو فوق ماء ترعة المناشي، نبوءة يجب أن تتحقق كما قالت راجية مهما حاول عرنيش الجافي أن يهرب منها، منذ شهور طويلة وعرنيش لا يقترب من ترعة المناشي ولا يمر بمحاذاتها عملا

بنصيحة راجية الشحات ليهرب من مصيره، حتى لو كان له حاجة هناك بالقرب من الترعة فلا يذهب أبدًا، لو كان عرنيش يؤمن بنبوءاته لأدرك أنه لا مفر منها، لكنه يحاول الفكاك من نبوءة موته، النبي هو أول المؤمنين بنبوته وإلا كيف يصدق الناس الجافي، قالت راجية كلامًا مثل هذا وبكت، ظلت تنتظر هناك عند ترعة المناشي طويلا، وإذا كان بمقدور عرنيش أن يهرب، أنا أيضًا يمكنني أن أهرب من نهايتي إذا صعدت إلى الخور، المناشي مقبلة على صراع طويل وعراك لا ينتهي بين بيت فتوح وبيت خروشة هذه الأيام، هذا العراك سيأكل الأخضر واليابس كما حدث في المناشي قديمًا، الحكومة كعادتها تقف على الجسر، تتفرج ثم تكافئ المنتصر وتجعله رجلها في المناشي وتنصِّبه سيدًا على بر المناشي، يأمر الناس هنا ويكلمهم باسمها، هو رسول الحكومة ويجب أن نؤمن به وبرسالته، تلقي عليه الحكومة أوامرها من هناك من البندر البعيد حيث تحتجب ولا يراها أحد، لم ير أحد في بر المناشي الحكومة ولا رجالها، لكننا نؤمن حتمًا بوجودها، والعمدة فتوح هو من يحفظ أوامرها ونواهيها ويحملها إلينا وعلينا السمع والطاعة، العمدة فتوح يتزين ويرتدى الجبة والعمامة ويحلق شعر رأسه ويهذب شاربه، كان يتهيأ لملاقاة الحكومة في البندر، يركب حماره الحصاوي ويسير الخفراء حوله قبل أن يلحق بالقطار هناك في سنورس حيث المحطة، لماذا لا تأتي إلينا وتخاطبنا الحكومة وتظل هناك في عليائها لا يراها أحد وتترك عمدتها في بر المناشي حاكمًا، له كل حقوق السيد على عبده؟ المناشي خيرها قلَّ وأرضها أصابها العطن. الخروج إلى الخور ووادي الحلفاء هو الحل، الناس في المناشي تائهون والعمدة فتوح لم يعد منشغلا الآن بمصالح الناس، بل لا عمل له سوى جمع أفراد عائلته وتجهيز السلاح وترتيب الخطط للدفاع عن مُلكه في بر المناشي ضد بيت خروشه، يفكر أن يبني جدارًا عظيمًا يلف المناشي ولا يستطيع بيت

خروشه تخطِّيه أو نقبه، فتوح جمع فقراء المناشي وأمرهم ببناء السور.. جمع الرجال والنساء، بيت خروشة أصبح هجومهم على المناشي وشيكا لذا يجب الانتهاء من بناء السور سريعًا، منذ أن ألمح عرنيش للعمدة فتوح بقرب انتهاء ملكهم في بر المناشي والعمدة لا يطيق أن يراه وأمر خفراءه أن يبعدوه عن مجلسه بعد أن كان مسموحًا أن يدخل عليه في أي وقت، خاصة أنه سمع ما يتردد في بر المناشي من أنه يقابل بعض أفراد عائلة خروشة سرًّا هناك على مركب صغير في بحيرة قارون.. مركب عزيزة خروشة، العمدة فتوح أقسم أمام عائلته أنه فور انتهائه من القضاء على بيت خروشه، أول شيء سيفعله هو أن يجعل من عرنيش الجافي عبرة في بر المناشي جزاء خيانته، ربما يطرده من المناشي كلها ويعيش بقية حياته بلا مأوى شريدًا طريدًا، هذا عقاب من خان، لكن ماذا عن عفريت الجافي الذي يأويه عرنيش في بيته ويسوقه على أهل المناشي ليؤذيهم؟ هل سيترك صاحبه عرنيش فريسة للعمدة؟ الناس يتندرون ويقولون سيعود إلى أرض الخور التي جاء منها الجافي والد عرنيش، هو من سمح لهؤلاء الملاعين أن يسكنوا بر المناشي ويدخلوا بيوت الفلاحين فيها، عندما يقترب الخطر تكثر الشائعات المليئة بالخرافات والمناشي الآن على أعتاب العراك الثانى، لكن لماذا نؤمن به ولم يره أحد؟! لماذا نصدق عرنيش الجافي ونعتقد في وجوده وأنه يعيش معنا ؟ ربما كان مجرد هواء لا يقدر على فعل شيء، هو مثل الحكومة التي لم يرها أحد وتعين العمدة وتمده بالسلاح كي يضمن ولاء الناس هنا لها وطاعتهم لأوامرها.. لكنها محتجبة بعيدًا عن بر المناشي.

على خطواته التي مازالت محفورة في طريق الخور ووادي الحلفاء سرت خطوة بخطوة، كنت أشعر داخلي أنه موجود وربما سمعت أنفاسه تلهث خلفي لأنه صار الآن شيخًا عجوزًا يستند على عصاته ولا يستطيع أن يجاري خطواتي السريعة النشطة، رأيت خطواته الشابة كأنه يخطوها

أمامى الآن، كأنه يعلمني أن أخطو مثل طفل صغير وأبوه يساعده كي لا يقع في خطواته الأولى، هناك أول ما رأيت.. رأيت جاموسة أبي صميدة الغابي، رأيتها ترتع في خير وفير وحبلها السائب على ظهرها، كيف مضت كل هذه السنين ومازالت على حالها؟ الزمن هنا في أرض الخور لا يتحرك، الزرع والشجر رأيته كما وصفه أبي تمامًا منذ سنوات.. ونخلات عطية لم تتغير، كل شيء على حاله كما وصفته لى أمي هداية، الخور بالضبط كما هو في حكايات أمي، أرض لا يتمدد فيها الزمن. أرض الخور على حالها منذ خلقها الله تعالى، لا يموت زرعها ولا تشيخ شجرتها، لو بقي أبي صميدة الغابي هنا لظل على حاله شابًا بعضلات فتيه، سر الخور الذي لا يعرفه أحد انكشف لي وحدي، طويت لي الأرض هنا حتى رأيت عنتر النوبي حيًّا يُرزق بهيئته التي كان عليها يوم أن ترك المناشي وسافر إلى أرض الحجاز، يرتدى الجلباب الأبيض ويضع الطاقية الشبيكة على رأسه، كيف يعود الموتى من قبورهم؟ أخبرتني سماح أن أحدًا لم ير موت عنتر النوبي ولم نعرف له قبرًا حتى الآن، ثم إن عزة القُمّص قالت إنها شاهدته عند ترعة المناشي وهو يرتدي الأبيض.. قلت:

- وأنا رأيت النوبي في أرض الخور يرتدي الأبيض ويقرأ أشعاره التي نحفظها، لكنه لم يجبنى حين ناديت عليه باسمه، كان بيننا حلفاء هائلة، لم أستطع تخطيها وقد حاولت مرارًا لكنني لم أفلح، كل مرة كان السنط يمسك بتلابيبي ويمنعنى من أن أتخطي الحلفاء، صوت خرير الماء الصافي هناك كأنه الموسيقى ينساب ليروي الزرع، الماء العذب يفور من الأرض ويتفجَّر ينابيع صافية، وأشجار الفاكهة تتدلى ثمارها على الأرض، تقطف ما تشاء دون عناء، السماء صافية دون غيوم تتوسطها شمس ترسل أشعتها ولا تحرق الأبدان كشمس المناشي.

حين قعدت في فراش سماح العجوز أحكي ومرعي البرادعي يسمعني بعد أن هدأت الحُمى قليلا، حكيت له ما شاهدته في رحلة الصعود، كان عرنيش الجافي جالسًا، حضر توًّا وقرع بيت العجوز ودخل دون استئذان بعد أن عرف ما جرى. أخذ يسألني عن أشياء في الخور وأنا أجيبه، وطلب وصفًا لنخلات عطية، قلتُ طلعها نور وجريدها ذهب ولون بلحها أحمر ليس كالأحمر الذي نعرفه، بهت الجافي وأنا أقص عليه، ثم سألني عن وادي الحلفاء، قلت فحيح الأفاعي تقشعر له الأبدان، وثعابينها تطير وسنطها كالكلاليب، حينها صمت الجافي قليلا.. ثم قال:

- صاحبكم كان نائمًا واستيقظ، مجرد حلم لا قيمة له. كيف يذهب إلى أرض الخور ويعود ما بين العصر والمغرب.. معقول هذا الكلام؟ إنها مجرد رؤيا، أضغاث أحلام.

أقسمت له فعلا أنني صعدت إلى أرض الخور وأن ما رأيته رأيته حقًّا وليس مجرد حلم، لكن الجافي أصر أنني أهذي من شدة الحُمى بعد أن وضع يده على جبهتي.. ثم وجَّه حديثه إلى مرعي وقال:

- قل لصاحبك هل رأينا أحدًا ذهب إلى الخور ثم عاد من هناك؟ ولو عاد مثل أبيه كانت نهايته الموت.

قال مرعي في لهجة التحدي:

- أنا أصدِّقه فيما قال.

- لأنك مجنون مثله، كيف تصدق هراء؟!

كلام مرعي البرادعي كان تثبيتًا لي وتصديقًا لحديثي، مما جعل عرنيش يلوى عنقه ويفرك أصابع يده ويهز كتفيه رفضًا لكلام مرعي الذي استرسل في حديثه:

- صدَّقنا أن الصوفي يكون في مكانين في وقت واحد، أو أنه يمشي على الماء، وصدَّقنا أن القديسة عزة القُمّص تقطع صحراء قاحلة بلا ماء ولا طعام،

وقد ساعدها ملاك طيب رقَّ قلبه لها، فكيف لا نصدق أن حريش الغابي صعد الخور وعاد بين العصر والمغرب؟ هذه الآيات الكبرى يحكمها ناموس خاص وليست قواعد المنطق والعقل القاصر.

علت قسمات وجه سماح فرحة بينما كانت تدنو من فمي بكوب عصير الليمون، وحين طالعتُ وجه عرنيش المحترق ضجرًا وجدته يرسم ضحكة ساخرة ثم نطق بعد طول صمت:

- لو كان حريش صادقًا ما أصابه الإرهاق والتعب وما أكلته الحُمى.

أكمل ضحكته الماكرة التي ملأت أذني فصرختُ داخلى: "لماذا يتكبَّر ويلوي عنقه ولا يريد أن يصدِّق حديثي؟".

المناشي انقلب حالها بين مصدق ومكذب، لماذا لا يصدقون أن رجلا مثلي يصعد أرض الخور؟ يقولون إن حكايات أمه له في المهد عن رحلة أبيه إلى الخور جعلته يهذي وأفقدته الحد الفاصل بين الوهم والحقيقة؟ لكنني موقن بما جرى وأنه حدث فعلا وأنني صعدت الخور وشاهدت ما شاهدت، قالوا: "حريش ليس من عائلة كبيرة في بر المناشي وليس له ظهر حتى يصعد وسيكون مصيره مثل أبيه".

الحكاية بدأت بعد أن صليت العصر في جامع المناشي وخرجت من الجامع عائدًا إلى بيتي، وفي الطريق وجدتني دون إرادة مني أتجه ناحية أرض الخور، شيء يملؤنى بكلمات لم أفهمها، قلت ربما شيطان يوسوس لي فاستعذت بالله وسرت خطوات عائدًا، إلا إنني شعرت لحظتها أن خطواتي بطيئة ثقيلة وكلمات تقع في أذنى تشبه الوحي لكنها ليست وحيًا، كأن ندى الصباح يكلمني، أنصت له ووجدتني أتراجع وأتجه ناحية أرض الخور.. لا أكذب، انتابني الخوف وترددت لكنني رغم ذلك وجدت نفسي مدفوعة لرحلة الصعود، وكلمات الندى تسقط في أذني تحثني على التقدم، قدماي تندفعان إليه وعيناي مثبتتان على الأفق البعيد.

سرت بمحاذاة ترعة المناشي ولم أر أحدًا طوال السير. رأيت جريدة ناشفة حملتها من الأرض وقلت أستند عليها في رحلتي. كان الوقت يدنو من الغروب، أسرعت قبل أن يلف الظلام أرض الخور، حين نزلت المدق الوعر واقتربت من الخور شعرت بالرهبة وانتابني الشعور بالخوف، لكن ما إن رأيت قدمه مطبوعة هناك على المدق- لم يفلح كل هذا الزمن الذي مر في إخفائها- ظللت مكاني أتطلع إلى كف قدم أبي صميدة الغابي التي حفرت بصخرة عظيمة، كيف صعدها أبي، وضعت قدمي على قدمه، تساوى القدمان، فرحت وقلت إنها إشارة وبشارة، تقدمت وأنا أبحث عن موضع أقدامه وأطبع كف قدمي عليها تمامًا، حتى وصلت إلى وادي الحلفاء وسمعت فحيح الأفاعي ورأيت العقارب تحوطني من كل اتجاه، أدركت أنها النهاية وأن موتي أصبح محققًا، وأن نبوءة عرنيش الجافي ستتحقق وأنني لا محالة هالك، وحين تلدغني واحدة من هذه العقارب سينتشر سمها في بدني كله ولن تمر أيام بعد عودتي إلى بر المناشي وأموت مثل أبي الذي مات بعد أيام قليلة من عودته من الخور، يبدو أن واحدة منها لسعته بسمها ونفثته في عروقه فمات بعد عودته. لكن شيئًا ما حدث، لم أره بنفسي لكنني شعرت به ولم أدرك كنهه، وجه كوجه أبي أو ربما كوجه عنتر النوبي مخضبًا بالدماء كالتي سالت على وجه عزة القُمّص، وجه بملامح نورانية أشرق أمامي، سرت خلفه طائعًا لا أملك التراجع حتى دخلت أرض الخور، ربما كوجه الملاك الطيب الذي ساعد عزة القُمّص لتتخطى الصحراء القاحلة بمفردها.

حين عدت من الخور كنت في حالة ما بين النوم واليقظة، أتحسس طريقي عائدًا من رحلتي التي جاءتني بغتة ولم أكن مستعدًا لها، ما رأيته لا يستطيع أن يتحمله مثلي وليس باستطاعتك أن تحكي عن كل ما شاهدته، عدت مرهقا لا أطيق حمل جسدي ورأسي طاحونة تكاد تنفجر، والعرق

الغزير يبلل ملابسي، لم أشعر بنفسي حين وجدتني مكومًا أمام باب بيت سماح العجوز، أدق بابها بعنف، كان الظلام يلف المكان إلا من شعاع خفيف يطل من شيش بيت حامد الرديني، صرخت حين رأتني مكومًا على بابها، قلت أدخليني إلى بيتك، ضعيني في فراشك يا سماح، أنا أتهاوى مثل بناية عالية، أتهاوى فجأة كأن زلزالا يهز الأرض من تحتي، ضعيني في فراشك. تحركت سماح سريعًا، حملتني بين يديها وقد صرخت على أمها، وضعتني سماح في سريرها كما طلبت منها وأحضرت ماء وأخذت تصب على وجهي محاولة إفاقتي من نصف غيبوبة. كانت فزعة مرتاعة تتحرك في كل اتجاه، هي لا تعرف ماذا جرى لي، كان لساني يتدلى من فمي ولا أستطيع أن أحركه، ما جرى لى هذه الليلة في رحلة الصعود إلى الخور لا يطيقه بشر، عناء فوق عناء.. جسدي يتهاوى وأنفاسي ترتفع في صدري وقلبي يسرع في نبضه وعرق غزير يخرج من جلدي مثل نافورة، سماح تفعل ما بوسعها لتجفف العرق، تضع يدها.. تلسعها حرارة جبهتي فتصرخ في أمها أن تحضر ماء القلة البارد لتسكبه على جبيني، ثم تأتي بالمنشفة وتمررها على جبهتى وصدري، تخرج مني حشرجة وكحة ناشفة، ترتج سماح وتقرأ الآيات على رأسي، هي لا تعرف ما الذي جرى لى وما الذي أوصلني إلى هذه المرحلة من التداعي، تصرخ وتضرب بكفها على صدرها وتشهق، تصرخ في وجهي تريد إفاقتي كلما شعرت أنني أغيب عن الوعي، كنت أشعر بها لكنني غير قادر على تحريك عضلات وجهي وفمي كى أهدِّئ من روعها، أشرت لها بعينيّ اللتين فتحتهما بالكاد ونظرت في اتجاهها. شعرت بي.. ابتسمت بعد أن أدركت قدر المشقة التي أتكبدها في الحركة، مررت أصابعها على شعري وجبهتي ثم وضعت قبلة على يدى التي كانت تقبض عليها طوال جلوسها بجواري.

حين أفقت وجدتها تبتسم كعادتها، هززت رأسي بالرضا، تُرى.. ما الذي دفعني أن أطرق باب سماح في هذا الوقت بعد عودتي من الخور؟
حين عادت كانت تمسك كوبًا من الشاى، اعتدلتُ في جلستي ومددت يدي وحملت كوب الشاى إلى فمي، فقد كان رأسي ينفجر وقلت كوبًا من الشاى يهدِّئ رأسي، نظرت إلى سماح وقلت:
- صعدت إلى الخور يا سماح، فعلتها وصعدت إلى هناك، عدت مرهقًا متعبًا، ما أشد تلك الرحلة يا سماح، أشعر بقرب نهايتي.
نظرت سماح لي هادئة الملامح:
- ستعيش لأنك طيب وتحب المناشي، لن يخذلك الله يا حريش، أنت عدت للحياة من أجلي ومن أجل أهل المناشي.
سماح هي أول من صدَّقني في بر المناشي، البعض ظنني أهذي بحكايات مجنونة، أما سماح فصدَّقتني حين كذَّبني أهل المناشي، بكت ساعتها وأنا راقد في فرشتها، نزلت دموعها ساحنة، حاولت أن تهدِّئ من روعي.. قلت:
- لكنني خائف يا سماح، أرتعد.. أشعر أنني أقع في الفراغ؟
ـ لا تخف.. ستكون بطلا من أبطال المناشي، وسيحكي الناس عنك وعن صعودك للخور.
- أخشي أن يكذِّبني الناس ويقولون حريش أصابه مس شيطاني ويهذي.
ما قالته سماح هدَّأ من روعي، جعلني أستكين لحظات في فراشها الدافئ، ملكت نفسي وحركت ذراعي، نظرت إلى وجهها المضيء، كنت أحاول أن أصف لها ما جرى، كان شعورًا جارفًا كأنني مسلوب الإرادة، أتحرك كدمية، أندفع تحت رغبة جارفة تملَّكتني، سرت بنصف وعي يا سماح، تحركت ناحية الخور وصعدت، لم يكن بإرادتي أن أتوقف.

كانت سماح تنصت لي، وفجأة أمسكتُ عن الكلام وشعرت بالدوار.. قلت: ربما تكون النهاية. صرخت.. أريد مرعي، أريد أن أرى مرعي البرادعي يا سماح، أحتاج إليه وإلى كلماته، اذهبي إليه، قولي له: "حريش يطلبك الآن، لن يتأخر.. سيحضر حالا".

ذهبت سماح إلى بيت البرادعي لتحضر مرعي، لم تمر لحظات ووجدته فوق رأسي، دخل سريعًا، بعد أن دلف دون اسئذان نظر إلى جسدي النائم في فراش سماح، تابع كأنه يبحث عني. كان مرعي فزعًا، جرى ناحيتي، قبَّلنى وأمسك بيدي، أخبرته بما جرى لي وأنني صعدت إلى أرض الخور. ودار حوار ساخن بين عرنيش الجافي وبين مرعي البرادعي، كان مرعي مثل سماح يصدقني، ربما وجدني ذلك النموذج الحي الذي كان يريده، كان يريد أن يكون صوفيًّا حين ابتعد عن سفيرة، لكن عرنيش الجافي كان يظنني مريضًا أصابه مس.. قال عرنيش متهكمًا:

- هل تظنه صوفيًّا؟! كيف وهو يتلذذ بجسد سماح كل ليلة عند عنابية الحاج مفتاح؟ هل الصوفي يفعل هذا بجسد النساء؟

أسقط في يدي، كيف علم هذا المعلون بما يجري بيني وبين سماح؟ من أخبره بهذا وكنا في مأمن ولم ترانا عين ولم يتبعنا أحد؟

خرجت سماح من الحجرة بينما وقف مرعي مندهشًا غير مصدق لما يقوله عرنيش، عرنيش كان فظًّا غليظ القلب، مرعي نظر ناحيتي فأدرت وجهى، أسقط في يدي.. شعر الجافي بالراحة.

أمسك عرنيش الجافي تلفيحته الزرقاء وعقدها على هيئة دوائر حول رأسه العاري ورمى كلماته المسمومة في وجهى، لكن مرعي صرخ أمامه:

- أنا أصدِّق حريش الغابي، هو يحب سماح كما أحب المناشي.

هز الجافي رأسه وكح وسعل، ثم تعالت ضحكاته وهو يقترب من مرعي، أمسك برأسه وهزها هزًّا عنيفًا حتى كاد مرعي يسقط على الأرض من

شدة الدوار لولا أنه استند بجسده الذي ترنح إلى الحائط، صرخ فيه الجافي ليجهز عليه:

- حين يلهو فرخ من هواء في جسد سفيرة طوال الليل، يتحد به كعاشق، ويتلذذ بنتوءات وانحناءات جسد رائع مثل جسد سفيرة.

حينها أسقط في يدنا جميعًا ولم يتحرك لنا ساكن، مرعي وقع على الأرض لا يتكلم، دخلت سماح خائفة ترتعد حين شاهدت مرعي يبكى متكوِّمًا في زاوية الحجرة، بينما عرنيش الجافي يضحك، لكنه صمت فجأة وقال:

- أعرف أن نهايتي اقتربت، عمَّا قريب سترون جسدًا طافيًا في ماء ترعة المناشي، لن يكون هذه المرة لأحد خفراء العمدة.. بل سيكون جسدًا ملعونًا أصابته النبوءة، النبوءات لا مفر منها، وما أفعله حين أبتعد عن ترعة المناشي مجرد تعلق بوهم.

غدًا سأذهب إلى ترعة المناشي، لم يعد لدي صبر، كيف يقعد المرء هكذا ينتظر نهايته؟! سأذهب بإرادتي لأنفذ النبوءة، بقيت سنين أحدِّث الناس عن النبوءات وحين تصيبني أجزع وأهرب كفأر، ماذا يقول أهل المناشي عن عرنيش الجافي؟ غدًا سأخطو آخر خطواتي إلى النهاية، وأنت أيضًا يا حريش يجب أن تتحقق النبوءة التي أعرفها.. "من صعد الخور سيموت". إن كنت صعدت كما تزعم فقد كتبت نهايتك، هذا هو آخر فصل في حياتك، سماح قمر المناشي ستنوح بعد قليل.

نعق غراب فوق السطح، خبطت سماح بكلتا يديها على صدرها خوفًا من كلام عرنيش الجافي، جرت ناحيتي. احتضنتي بقوة ومسحت عرقًا بلل جبهتي بينما كان مرعي يبكى، كيف ترك مرعي جسد سفيرة مرتعًا لإبليس يتجول فيه حيث يشاء، كان يدخلها على هيئته وسفيرة تظنه مرعي وتمنحه جسدها عن طيب خاطر وهو يخدعها، كان على مرعي أن يخبرها، لو علمت سفيرة بما يفعله معها حين يدخل جسدها كل ليلة؟

لابد أن يشعر مرعي بذنبه الآن حين ترك جسد سفيرة وجعلها ضحية ملعون استغل جسدها الطاهر، صرخ مرعي قبل أن يغادر:
ـ سيكون انتقامي شديدًا.

(13)
سماح تروي النهاية

أكمل العمدة فتوح بناء السور الذي طوَّق المناشي وجعل أهلها كأنهم في سجن كبير، السور الذي أحاط بالمناشي أحاط بنفوسنا أيضًا، الجدار حال بيننا وبين أحلامنا، مرت سنوات على صعود حريش الغابي إلى وادي الحلفاء والخور والناس كما هي في بر المناشي، بعضهم يكذِّب وبعضهم يصدِّق، ظلوا على هذا الحال بينما فتوح ورجاله قد سخَّروا ضعفاء المناشي وفقراءهم في بناء الجدار، منذ أن شرعوا في بنائه لم نعد نرى الخور من هنا كما كنا نراه طول عمرنا ونحلم أن تصل أقدامنا يومًا إليه، الجدار عزلنا عن أحلامنا، هذه المرة كانت الأزمة أكبر، لم تعد المناشي كما كانت، حتى عندما مرت على المناشي في الأزمنة البعيدة فتن كثيرة ومعارك أكثر، صراعات على العمدية ومرة على ماء البحيرة وكنوز الخور ووادي الحلفاء.. تلك الفتن طالما تذكرها الأجداد وحكوها إلى الأبناء، ومن جيل إلى جيل أصبحت ذاكرة المناشي عامرة بتفاصيل كثيرة عن النزاعات التي جرت على أرضها، تاريخ لا يجهله صغير ولا كبير في بر المناشي، لكن رغم تلك الصراعات ظل الحلم كامنًا داخلنا ينمو ويكبر، بدأ منذ أن هبط جدنا الأول من أرض الخور، حيث كان النعيم ورغد العيش كما حكى لنا الأجداد، هبط جدُّنا إلى دار الشقاء.. إلى بر المناشي ليعمل ويشق بفأسه الأرض، ويحفر البئر الشرقية ليشرب الماء، ويحفر الترعة ليروي أرضه، وظل الحنين دائمًا لأرضنا الأولى التي هجرناها وصارت تسكنها الحيات والعقارب والجن، ذلك الحنين لم ينطفئ يومًا لكن الخوف والعجز منعا الناس أن يصعدوا الخور، في حكايات المناشي التي تروى لم أجد سببًا

لنزول جدنا من أرض الخور إلى بر المناشي، الحكايات تُجمع أنه كان مضطرًّا، هبط مرغمًا، كان يحكيها لنا مفرح البرادعي وكنا صغارًا نلتف حوله وهو يفرِّق الحلوى علينا ويحكي عن جدنا الأول.. وكيف حاصرته الحيات هناك في الخور، لذا فالناس هنا ما زالوا يعتقدون أن السبب وراء نزول جدنا كان انتشار الحيات والعقارب، وقد خشي جدنا على نفسه ونزل بر المناشي حيث الشقاء والتعب، أمي قالت لى إنها سمعت أن جدنا ترك نعيم الخور من أجل جدتنا التي رآها في حلمه وهي تسير بدلال على شاطئ ترعة المناشي، رآها من بعيد.. خفق قلبه وسرعان ما وجدها في أحلامه ولم يجد مفرًّا من النزول، نزل خلفها وطلبها وسكنا معًا بر المناشي، لم يأخذ أبوها من جدنا مهرًا، طلب منه أن يحرث له أرضه الجدباء هنا في بر المناشي حيث كان القحط وقلة القوت، طلب من جدنا أن يزرعها له ثلاث حجج وبعدها من حقه أن يأخذ زوجته معه أينما يريد، لكن الذي حدث أن جدنا استطاب له العيش هنا في بر المناشي وخشي من العودة للخور بعد أن سكنه الجن.

حريش الذي عاد من الخور ووادي الحلفاء لينام في فراشي ليلتها.. سهرت عند رأسه حتى أفاق من الحُمى التي أشعلت جسده، الحُمى في تلك الليلة لعبت برأسه حين أخبرني أنه يريد أن يذهب إلى شاطئ البحيرة، تعجَّبت مما قال وقلت لماذا تريد أن تذهب إلى البحيرة؟ قبض على كفي المرتعشة وقال:

- سأصنع مركبًا.

ضحكت وقلت ربما لعبت الحَّمى برأسه:

- هل ستعمل صيادًا يا حريش؟

- مركبي سأحمل عليها أهل المناشي إلى أرض الخور عبر الترعة، طريق الخور وعر وتحفُّه المخاطر.

قال لي: "أريد أن أصنع مركبًا على هيئة سفينة عظيمة، تحمل من كل زوجين اثنين من بر المناشي".

تظن نفسك نبيّصا أتى لينقذ الناس من المعاصي ويحملهم على ظهر مركبه إلى أرض الخور، تبحث عن سفينة النجاة، قلت لى إن بر المناشي سيغرق حين يفور ماء الترعة وماء البحيرة البعيدة، حين يلتقيان ساعتها ستغرق المناشي حتمًا وحينها يلوذ الناس بمركبك لتحملهم إلى أرض الخور، أنت تهذى من شدة الحُمى، أنت لست نبيًّا حين صعدت إلى الخور ووادي الحلفاء كنت مثلنا مثل أي واحد من المناشي يحلم أن يصعد الخور ويعرف كنوزها، هل تظن نفسك عدت تحمل الرسالة إلينا من أرض الخور؟ الناس الذين التفوا حولك فتنوك، جعلوك تتخيل أشياء لا تحدث، تظن أنك ستحمل هؤلاء الطيبين على مركبك، تحمل أهل المناشي الطيبين من جحيم المناشي ونارها المستعرة إلى أرض الخور حيث الأرض البكر الطاهرة، تظن أن بإمكانك أن تختار من بر المناشي من هو دون معصية، تجمع كل فقراء المناشي كلهم في صعيد واحد.

كان حريش الغابي يظن أن بمقدوره أن يحملهم إلى أرض الخور حيث حياة النعيم وكنوز لا تحصى، وهناك سيلتقي الراحلون الطيبون مع ذويهم، لا موت في الخور كما تقول لأنه يحملهم طيبين طاهرين حيث لن يقول الرب لعباده الطيبين اهبطوا منها، تظن أن الرب هو الذي طرد جدنا من الخور لأنه عصاه، الحقيقة التي ترويها حكايات المناشي أن جدنا نزل من الخور لأنه أحب أمنا وأرادها، لم يطرده الله من أرض الخور لأن هذه الأرض لم تكن له، تظن أن الخور سيخلو هذه المرة من العصاة، تظنني سأصعد معك مركبك، لا.. بل سآوي إلى عنباية الحاج مفتاح لتعصمني من الفتنة، هناك كان لقاؤنا الأول.

تقول إن تجربة جدنا الأول فشلت في أرض الخور، لكنك تظن أنك هذه المرة ستنجح وسيتركهم الله ينعمون في الخور ما دام أهلها بلا معصية، لماذا لا يمنحنا الرب فرصة أخيرة؟ هذه المرة لن نسمح لوسوسة إبليس أن تدخل عقولنا.

ظن حريش الغابي أن بمقدوره أن يطرد إبليس من أرض الخور حتى لا يوسوس له كما وسوس لجده من قبل وأنزله بر المناشي، تظنه سحرك وجعلك تتخيل أشياء لا تحدث كما قال عرنيش الجافي وروَّج لهذا في بر المناشي. يقول إنك لم تصعد ولكن شُبِّه لك الأمر، هي ذاتها تلك الجريمة التي اقترفها ويجب أن يُعاقب على جريمته تلك، لن يدخلها ثانية.. يكفى ما فعله مع سفيرة، دخل جسدها واستعذبه، امتطى جسدها وهي لا تعلم، ظنَّت أنه مرعي، مرعي ذهب إلى بيت الجافي، قال إنه لن يعود إلا ورأس عرنيش في حجره وأقسم أن يلقيها للأفاعي والعقارب، فكرة الانتقام عصفت برأس مرعي البرادعي وملأت صدره بالسواد، عندما علم عرنيش بما ينتويه مرعي فرَّ هاربًا، كل ليلة ينتقل من بيت إلى آخر، لا ينام في وكر مرتين، حتى عندما لاذ بالعمدة فتوح، ضحك العمدة وأمر خفراءه أن يربطوه في زريبة من زرائب البيت ويحشوا فمه تبنًا، ثم تركوه يلهث مثل كلبٍ ضال. قالوا عرنيش الجافي صعد الخور، كان يود أن يحتمى بعفريته لكنه كالعادة لم يجده، كان عفريته مشغولا.. ربما بالبحث عن سفيرة في كل مكان في بر المناشي، لكن مرعي دل سفيرة على جامع المناشي، قال لها لن يستطيع الملعون أن يدخل من عتبة الجامع وأنا سأنتظره في بيت عرنيش الجافي عندما يعود حتى أعاقبه على فعلته. سفيرة دخلت جامع المناشي ونامت هناك في أمان بينما كل من في المناشي كان يسمع صياحه ليلا، يصيح ككائن مجروح، النار التي تخرج من قلبه ستحرق المناشي كلها، الفلاحون قالوا إنهم شاهدوا حرائق كثيرة في أعواد

القطن وأجولة التبن، النار تندلع فيها دون سبب ولا تفلح محاولتنا أن نطفئها، كلما انطفأت أوقدها الملعون، ناره ستصل إلى كل بيت في القرية كأنه غراب حزين، كل ليلة يقف على سطح بيت حامد الرديني وينعق حزينًا، كان يتوجَّه ناحية نخلة الرديني التي تقف على رأس الجسر، الناس فوجئوا أن نخلة الرديني خرج من جذعها رأس جديد، طلع يشبه رؤوس الشياطين، طلع له جريد ناشف يظل هكذا طول العام وزعفه أصفر لا يبلى ولا يسقط، وعرجونه يطرح بلحًا صغيرًا لا ينضج ومن ذاقه شعر بمرارته، حاول حامد الرديني قطعها مرارًا لكن كلما قطعها خرجت من بطنها رأس جديدة على تلك الهيئة، تلك النخلة التي كان يركبها الملعون حين رأى سفيرة لأول مرة وشاهد جسدها وهو يتقلب في غيط البرسيم، منذ فترة طويلة لم نسمع عواءه، الناس في المناشي أسموها نخلة الجني ولم يقترب منها أحد.

المصائب تتداعى على بر المناشي.. زمن العراك القديم بين بيت فتوح وبيت خروشة سيعود من جديد، والفلاحون يضعون قمحهم في أجولة ويخيطونها جيدًا حتى لا يتسرب إليها السوس، ينتظرون أيام الجفاف والجوع وساعتها يخرجون كيل القمح لطعامهم، يقولون إن بيت خروشه يستعد لذلك اليوم من زمن طويل بالمال والعتاد والأسلحة، وإنهم سيأتون برجال لا حصر لهم حتى يكون انتصارهم محققًا، أما العمدة فتوح ومنذ أن رأى جسد عويس تكال طافيًا على ماء ترعة المناشي وفى قلبه غصة، لم يعد يهنأ بطعام أو شراب، كان تكال رجله وذراعه الأيمن وفجأة قُتل ولم يعرف من قتله، فى الأيام الأخيرة زهد في أرض الخور وكنوزها ولم يعد يتحدث عنها ولا يرغبها، حتى ما يأتيه من أنباء عن حريش الغابي وزعمه أنه صعد الخور.. تلك الحكاية التي شغلت بر المناشي بل وطغت حتى على سيرة حرب فتوح وخروشة، كان فتوح يرى أن حريش يلهو مثل جده

ولن يفلح في صعود الخور وقلَّل من أهمية حديث الناس عن صعوده، قال لجلسائه: "سمعنا هذا الهراء من قبل، والولد حريش الغابي لا أصدق أنه صعد الخور وعاد، هذا هراء وكلام يصدر من صبية، لو صعد الخور فعلا كما يزعم كيف سينجو من عقارب الخور وحياته؟! ولدغة من فم إحداها كفيلة بقتل حريش كما حدث مع أبيه صميدة الغابي". يشد من مبسم الشيشه ويسرح بعقله خلف الدخان الذي هام حول رأسه حين عاد صميدة الغابي من الخور حيث سار خلف جاموسته الشاردة، رآه العمدة فتوح الكبير ومعه تكال شيخ خفرائه راقدًا في سريره والحثمى تفتك به، آثر أن يجعل جل تفكيره الآن فيما ينتويه بيت خروشة ولا داعي لشغل رأسه الملفوفة بالعمة الكشمير بحكاية حريش الغابي، الذى يشغل رجاله من حوله متى سيكون هجوم رجال بيت خروشة على بر المناشي.

منذ أن صفعت عويس تكال على وجهه بكفِّي وطردته من بيت العجوز شر طردة، لم يرسل العمدة فتوح لى أحدًا من بعده، ربما انصرف عني بمشاغل الإعداد لحربه القادمة وعراكه مع بيت خروشه، ليس لديه وقت لشهوة النساء، شهوة الحكم تطغي على النساء.. الذين يحكمون لا يمتلكون قلوبًا ليعشقوا بها ولا أرواحًا هفت إلى القرناء، لكنه أفصح لأحد جلسائه يومًا وهو يضع قدميه في ماء الساقية: "لو كتب الله لي النصر في العراك القادم.. أول شيء سأفعله سأطرق باب سماح العجوز وأحملها إلى فراشي أمتطي جسدها وأحتفل بانتصاري على بيت خروشة، سأحملها مرغمة لأن ساعتها لن يقف أحد في وجهي، وما حيلة حريش الغابي الفارس الذي يريد أن يجمع الحُسنيين في كفِّه، يريد أرض الخور بكنوزها ويريد معها جسد سماح قمر المناشي؟ جسد سماح سيكون هو جائزة فوزي على بيت خروشة".

لم يدر فتوح أن حريش لم يعد كما كان، تزوجنا وسكن في فراشي لكن هذا الفراش لم يمنحني أبدا لقاء مثل اللقاء الذي كان يجمعني به هناك تحت عنباية الحاج مفتاح، كان فتيًّا عفيًّا يصهل كفارس وهو يمسك بزمامي، يمنحني حياة أخرى حين يفرك أصابعي في كفه.. حين يدفع حبات العنب واحدة تلو الأخرى في فمى، أطير بين جناحيه وأرى بر المناشي كله، أغرد كطائر وليد نبت ريش خفيف في جناحيه فانتشى وراح يحلم بالسماء العالية، رحيقي في فمه.. ذاق حلاوته وانتعش، غاب وعاد وهو في جسدي عالق، هل تظن أن هناك نعيمًا بعيدًا عني؟ أرض الخور التي تريدها لن تمنحك لذة مثلما شعرت بروحك تفور وجسدك يترنح كما وصفت لى حالتك، قلتَ: "حين حركتِ شعرك بين كتفي ولمست أطراف أصابعك تمنيت أن تنطفئ مصابيح الدنيا ولا أرى سواك". مرت كفك بين خصلاتى، ساعتها جعلتني أمرح في ملكك الواسع وسمائك البعيدة. منذ أن عدت من هناك.. من أرض الخور وأنت بعيد عني رغم أنك ترقد في فراشي، شغلتك كنوز الخور عني وهجرت نعيمي وجسدي يتوجع، أرضي رحبة وكنوزها بين يديك فلا تهجرها بحثًا عن وهم زائل، لن يمنحك ملك الخور ما يكفيك، ستظل جائعًا، أما أنا.. سأسقيك من كأسي حتى تشبع، كنت تحكى لي هناك تحت عنباية الحاج مفتاح وأنت تمسك يدي وتمررها على شفتيك فأحس بلسعة أنفاسك، قلت: "إن ملكا عظيمًا قد كتبَ وهو يتنازل عن عرش مملكة عظمى.. إننى لا أستطيع أن أصبح ملكا دون أن تكون بجواري المرأة التي أحبها". ورحل تاركا كل الملك خلف ظهره، لماذا لا تفعل مثله وتتنازل عن ملك الخور الذي تظنه لك. من أجلي؟ المناشي كلها صحت منذ أيام على فاجعة حين شاهدوا الجسد العائم على ماء ترعة المناشي، جسد يطفو ويسير مع التيار، جسد ينساب في وداعة على سطح الماء، تجمّع الأهالي وحين أخرجوا الجثمان وذهبوا به

إلى بيت حامد الرديني ليخبروا أمها جمالات أنهم وجدوا جسد سفيرة طافيًا على سطح ماء ترعة المناشي، ذلك الجسد الذي استباحه إبليس. منذ أن اندلع العراك والناس كل يوم يشاهدون أجسادًا تطفو على سطح ترعة المناشي، التيار يشدها نحو الهدَّار، تسقط الواحدة تلو الأخرى، إذا لم يوقف الجسد الطافى أحدٌ سيحمله الماء حتى يلقيه في ماء البحيرة المالح ويذوب في ملحها وتضيع ملامحه إلى الأبد.

حين شاهد مرعي جسد سفيرة طافيًا على سطح ترعة المناشي ذهب غاضبًا إلى بيت عرنيش الجافي ليهدمه على رأسه ورأس شيطانه الذي عصى أمر سيده ودخل جسد سفيرة يتلذذ به دون إرادة منها، حين اشتهاه وظن أنه قادر على كل شيء، حين غفل عنها مرعي وجلس متخفيًّا بين أعواد القطن الناشف على سطح بيته يراقب سفيرة ولا يقدر على فك أسره، مرعي جمع شبابًا من المناشي وذهب إلى بيت عرنيش الذي فر هاربًا، سكن مرعي بيت عرنيش الجافي ولم يعد، ظل هناك يجمع حوله الشباب والأولاد ويصرخ فيهم: "أنه قد أتى زمن الفتنة على بر المناشي وكلا الفريقين على باطل.. بيت فتوح وبيت خروشه"، وأمرهم أن يعتزلوا الفتنة، سكن مرعي البرادعي بيت الجافي واعتزل فتنة المناشي وقال "كلاهما في النار"، حتى جامع المناشي اعتزله ولم يدخله وبنى له ولأتباعه مسجدًا على ترعة المناشي يجاور بيت الجافي وراح يعبث بأوراق الجافي الصفراء هناك في الخزان.

كانت سفيرة ضحية مرعي البرادعي لأنه ترك جسدها الطري البض حين ظنه معصية يجب ألا يقترفها، ابتعد ولاذ بحجرته في بيت البرادعي، كان مرعي ضعيفًا يهرب من ضعفه وفقره ويظن أنه لو أصبح صوفيًّا سيعطي له الله ملكوت السموات والأرض في يمينه، كيف وقد تخلَّى عن صنعة أبيه وعن سفيرة، الله لن يهب الهاربين سدرة المنتهي.. حيث النعيم

المقيم في جسد سفيرة الذي لم تمسسه كف مرعي وظل عالقًا على سطح بيته.

أما ما يحكيه الناس هنا عن رحلة صعود حريش الغابي إلى الخور ويملأ أفواههم صباح مساء عن رحلته، البعض يقول إن كلام عرنيش الجافي صحيح وحريش الغابي لم يصعد الخور، وإن ما رواه مجرد رؤيا رآها في منامه، لكن من يصدق حريش يقولون إنه صعد بدليل تلك الحمى التي نشبت في جسده في تلك الليلة وما أصابه من تعب، ولو كان الأمر مجرد حلم لما أصابه نصب أو تعب، نشب الخلاف حول صعوده وحين سألني ترددت طويلا وقلت: ما الفرق بين الخيال والواقع؟ إذا كان حلمصا فهو يعبِّر عن إرادته في الصعود، وإن كان قد صعد فقد حقق إرادته. المسافة قصيرة جدًا لا تساوي كل هذا الجدل العقيم الذي شغل عقول الناس في بر المناشي، إنها على الأرجح لن تقل ألما عمَّا خاضته عزة لبيب القُمّص التي خاضت رحلة الآلام عبر صحراء العزب وهي تحمل صليبها، الصليب الذي أعطاه لها الأب الطيب وترك لها باب الدير مفتوحًا لكي تتمكن من الهرب، ونظر فرأى ملاكا طيبًا يحوطها بجناحيه فأدرك مدى لطف الله بالأنقياء حيث أرسل ملاكه ليعينها في تلك الرحلة التي خاضتها عزة وحدها، تشبه رحلة الآلام التي خاضتها العائلة عبر دروب صحراء ممتدة، وضعت عزة الصليب على صدرها ومشت في تيه ممتد عبر صحراء قاحلة لم تر فيها غير وجه الأب الرحيم الذي أطل عليها ذات مساء ورأى دموعها تحفر خديها وبدت كهيكل عظمي من شدة الألم، ذلك الألم الذي يخلق الإرادة القوية ويخلق كوة في الحائط المظلم ومنه يرى المرء ذاته وتتكشف له عوالم خفية كانت محجوبة عنه، كثير من الناس حين يدركهم الألم وتتسع حدقة الأخطار المحيطة بهم يأتون أفعالا تشبه المعجزة.. وقدرت عزة لبيب رغم ضعفها وهزالها أن تمر عبر

المفازة، كانت مثل كل الحالمين هنا في بر المناشي تتنتظر الصعود إلى الخور لترى عنتر النوبي بوجهه الأسمر وشاربه المستوى فوق شفتيه اللتين طالما سمعت منهما شعرًا، عزة لبيب وضعت صليب الأب على صدرها وقالت في هدوء: "سأراه هناك في أرض الخور بعيدًا عن حزن أرض المناشي الذي لا ينتهى". الناس هنا في المناشي يقولون ولم لا ولم ير أحد جثة عنتر النوبي حين مات هناك بعيدًا غريبًا في صحراء المملكة حيث داهمه السيل؟ لكن أحدًا لم ير جثته ولم تدفن إلى الآن، حتى حسنية الحفَّافة تقول إن ولدها لم يمت. كانت تصيح في شوارع المناشي ليلا وتصرخ والناس يسمعونها من خلف الشبابيك الموصدة والأبواب المغلقة بإحكام، يعرفون صوتها المنتحب الحزين وهي تصرخ في فضاء الطرقات الخالية تبحث عن ابنها الوحيد، لم يهدِّئ من غضبتها سوى عودة عزة لبيب، كانتا تخرجان سويًّا حين يهبط الظلام على بر المناشي وتقفان هناك عند ترعة المناشي تتطلعان إلى أرض الخور من بعيد. كل ليلة يرونه عائدًا بمفرده بوجه متشقق ورأس متهشمة وعظام كتفيه منحنية لأسفل وهو يرتدى جلبابه الأبيض الذي ارتداه وهو ذاهب برفقة مرعي البرادعي إلى جامع الحناوي ليحقق حلمه ويصعد منبر الجامع، يقولون إن عنتر النوبي لم يمت، وبعد أن أعياه البحث عن عزة لبيب في كل أرض المناشي ولم يعثر عليها ذهب إلى عرنيش الجافي، عرنيش الجافي أمهله ثلاث ليالٍ قبل أن يجيبه، وفى اليوم الثالث قال له: "إن عزة ذهبت بعيدًا إلى مكان لن تطاله يده".

قال عرنيش الجافي: "إن عزة صعدت الخور حيث وادي الحلفاء وحيات الخور". صعدت دون إرادة منها، كانت تسير خلف هاجسها، الآن هي تشعر بالوحدة والخوف هناك حيث البرد القاسي في الليل يضرب أعضاءها المتهالكة، حين قبَّل يد عرنيش لكي يخبره كيف يمكنه أن يصعد الخور خلف عزة، ضحك عرنيش وأخبر عنتر النوبي أن نهاية كل من يصعد الخور

هي الموت، وذكَّره بحكاية صميدة الغابي الذي صعد خلف جاموسته وكانت نهايته مفجعة، هل صعد عنتر النوبي الخور خلف عزة لبيب؟ لكنه لم يعد حتى الآن ولم ير أحد جثته، وها هي عزة تريد أن تذهب خلف عنتر وتصعد الخور مع حريش الغابي.

كل ما أخشاه أن يكون اللاهي الملعون قد عبث بعقل حريش وهيأ له ما هيأه لسفيرة ابنة الرديني، وأن ما يرويه عن رحلة صعوده مجرد أوهام ألقاها في روعه ولم يعد بمقدور حريش الغابي التخلص منه، واللاهي يريد أن ينتقم لنفسه ويغرق المناشي كلها بعد أن سكنت سفيرة جامع المناشي ولا يستطيع الوصول إلى جسدها، صار يعوى في الليل حتى سمعت أنينه البدنة وكل ذي ظفر وناب في بر المناشي، لو كان الأمر كذلك ستكون قيامة المناشي قريبًا حين يهرع الناس خلفه إلى أرض الخور، وحينها تقرع الحيات أجراسها وتفزع الثعابين نحو بر المناشي ويعلو ماء البحيرة المالح ماء الترعة العذب، وحينها تغرق أرض المناشي كلها بالماء المالح الذي يملأ الترعة ويجرى نحو بر المناشي في تدفق هائل يغرق في طريقه الأرض الخصبة ويميت الزرع، تلك النهاية البشعة تنتظر بر المناشي وأهلها والناس لا يفكرون في تحسين واقعهم بقدر ما يفكرون في أحلامهم التي تجرى خلف حريش الغابي الذي يدفعهم دفعًا إلى كنوز الخور ويظن ساعتها أن بإمكان مركبه أن تحمل الناس إلى الخور في أمان، يقول إنه سيحمل الطيبين فقط ولن يدع العصاة يركبون معه، سيتركهم يغرقون في الماء المالح الذي سيغطى بر المناشي كلها ولن يعصمهم شيء من الغرق، حريش لا يدرك أن الله ينقذ المؤمنين به وأيضًا ينقذ العصاة في آن واحد، حين تملك أداة النجاة فلا يجب إلا أن تفكر في إنقاذ الناس جميعًا على حد سواء، هكذا يفعل الله، لو أراد الله أن يغرق العصاة لفعل ولن يحتاج إليك لتساعده، تركت الخطر الذي يحدق بالمناشي حين تلتقي عائلة فتوح

وعائلة خروشة وتندلع حرب ضروس تغرق بر المناشي بالدم ويموت ناس كثيرون دون ذنب، أية أطماع تستحق أن يقتل الناس من أجل تحقيقها؟ الذين يمتلكون السلطة لا يفكرون في حياة البسطاء بقدر ما يفكرون في تثبيت الملك، عائلة فتوح التي حكمت المناشي واستولت على خيرها سنوات وسنوات وانغمست في النعيم وتركت الفقر والمرض لبقية سكان المناشي، حتى أجسادنا صارت ملكا لهم ولعمالهم حتى إن العمدة فتوح لم يكن يشغله شيء قبل اندلاع المعركة مع عائلة خروشة سوى امتلاك جسدي بذهبه وسلطته.. حين أغرى حريش بنصف فدان كي يتركني، ونهاية عويس تكال حين شاهد الناس جثمانه طافيًا على سطح ماء الترعة، تهلل الناس يومها وشعروا بالفرح لأنهم رأوا موت هذا العربيد، يقولون إن حسن المرادني أخذ ذوات ورحل.. ربما صعد الخور، لم يطق العيش هنا في بر المناشي، لا يعرف أحد سببًا لرحيله، كل ما أعرفه أنه أتى إلى حريش الغابي ذات مساء وكانت ذوات تحت إبطه، ترجَّى حريش يومها أن يأخذه معه في مركبه، كان يريد أن يصعد.. لا يريد أن يبقى في أرض كهذه، قال إنه سيجلس هناك عند أول ترعة المناشي ولن يعود، سينتظر مع ذوات هناك حتى تأتي مركب حريش.. والناس بعدها رأوهما هناك عند أول الترعة، بقيا معًا تحت صفصافة بيت الزيني، يشربان من ماء الترعة ويأكلان من سمكها.

رأس النخلة الذي خرج من بطن نخلة الرديني.. نخلة الجني، مال حتى صار على هيئة نصف دائرة أبهرت الناس وجعلوا ينظرون إليها وهم يمرون إلى جوارها بخطى سريعة، كانوا يسمعون لها بكاء وأنينًا، مرت سنوات والناس يطوفون عليها ويعجبون بها ويتأملون هيئتها العجيبة.. كأنها تصلي، بعض أهالي المناشي قالوا: "إن رامخها الناشف المتشقق يشفي بعض الأمراض"، رامخها ذاع صيته خارج المناشي وصار يأتيها من كل

مكان من يطلبون رامخها ويطوفون حولها، حتى حين همَّ حامد الرديني ليقطعها.. لم يستطع، كلما ضربها بفأس انكسرت فأسه، حتى حين حاول خلعها من الأرض وظل يحفر تحتها لكنه أبدًا لم يصل إلى جذرها الضارب في أعماق الأرض وأدرك أنه لن يصل إليها معول، قالوا هذا هو مصير من لا يرضى وتمرد وعبث بخلقه، عصف العشق بقلبه فخرج عمَّا هو مسموح به في قانون الخلق الأعلى وتجرأ وكانت نهايته أن خرج من بطن نخلة على شكل رأس يميل كنصف دائرة حتى لامس زعف جريدها الأرض. مُسخ على هيئة ركوع الصلاة. الأرض التي لامست جسد سفيرة وتشقق قلب راكب نخلة الرديني ورأى ما رأى من سفيرة حين تلوَّى جسدها في فدان البرسيم، وانساق ككائن ضعيف حتى أتى العقاب لمن تمرد ولم يبق كما هو ولا صار كما تمنَّى.

مرعي البرادعي سكن بيت الجافي واجتمع حوله خلق كثيرون، قال إنه يعبد الله في بيت الجافي، والحقيقة أن حديثًا انتشر على ألسنة الناس في المناشي أن أصحاب الجلاليب الخضر يشربون الحشيش والبانجو ويتركون أجسادهم تتمايل طوال الليل، مرعي أعلن عصيان بيت فتوح وأنه لن يطيع لهم أمرًا بعد اليوم.. ومن أطاعهم من أهل المناشي فقد عصاه، وبيت آل فتوح منشغلون بالعراك مع بيت خروشة ودوَّار العمدية فارغ، مرعي البرادعي استولى ومعه أتباعه على الدوَّار وحملوا السلاح وصاروا يحطمون كل شيء في طريقهم، يقتلون ويحرقون ثم يتمايلون طوال الليل على دخان الحشيش يعبدون الله، الجرأة وصلت أن مرعي البرادعي أعلن عصيان الحكومة في البندر. أتباع مرعي يكثرون كل يوم ومريدوه يأتون إليه من داخل وخارج المناشي، حين ضاق عليهم بيت الجافي ذهبوا إلى دوَّار العمدية وما لبث أن أعلن مرعي نفسه عمدة على المناشي وحاكمًا عليها، وبالأمس القريب شاهد الناس رأس العمدة فتوح معلقة على نخلة

بيت الرديني التي مال جذعها الثاني حتى لامس الجسر، الناس في بر المناشي لم يناموا في تلك الليلة، كلما مروا إلى جوار نخلة الرديني شهقوا ولم يصدقوا. لم تمر ساعات حتى رأى الناس رأس مرزوق خروشة معلقة إلى جوار رأس فتوح، شاهد الناس حسن المرادني وهو يعلق الرأس. قلت في نفسي هل أصبح حسن المرادنى زوج ذوات الملاح من أتباع مرعي؟

مرت على بر المناشي فتن كثيرة مثل قطع الليل المظلم، لكن ما نراه اليوم لم نسمع به من قبل، الأرض بارت وهلك الزرع وتوقف أزيز السواقي وردمت المساقي والمرض انتشر في البر كله، حينها قلت أين أنت يا حريش، لماذا صعدت وتركتني؟ لا مفر.. سأصعد إلى الخور لأراه، رحل من سنوات بعيدة وصعد إلى الخور، لم أره ولم يعد حريش الغابي، لم يعد من رحلته التي أعد لها وحمل الناس معه، لكن حين تفرَّق الناس من حوله بعدما أشاع العمدة فتوح أن حريش الغابي أصابه مس من الشيطان وأكد الجافي ذلك.. حين استهزأ بحديثه عن صعود الخور وسفَّه من كلامه، تردد الناس الذين التفوا حوله وتركوه وحيدًا، ظل هائمًا على وجهه في طرقات المناشي يدعو الناس وحده لكن الناس سخروا منه، النساء والرجال أغلقوا الأبواب في وجهه وتركوا صغارهم يجرون خلفه، يرمونه بالحجارة كالمجنون أو من به مس. ظل يصرخ لكن أحدًا لم يسمعه، ظل هكذا حتى قال لي إن أهله كذَّبوه ورموه بالجنون وليس أمامه إلا أن يصعد وحده إلى أرض الخور التي حلم بها، تركني ذات صباح مشئوم ورحل بمفرده بعدما حاولت أن أمنعه.. لكنه أبى، صرخ في وجهي وذات صباح لم أجده بجواري في سريري، ظللت أبحث عنه حتى عرفت أنه صعد الخور وتركني، من بعده امتلأ بر المناشي كله عويل وصراخ، حريش الغابي صعد ومعه رمَّانة العامية، أعرف الآن أنها سعيدة؛ فقد وجدت ولدها دعبس الذي قتله خفراء العمدة فتوح في البوص لأنه حمل كيلة من الحبوب التي تملأ مخازن بيت فتوح

أطنان منها، حمل دعبس كيلة منها لأمه الجائعة. رمانة تعرف أنه سيرد إليها بصرها كما قال لها حريش الغابي.

في الخور سأرى عنتر النوبي ومعه عزة لبيب التي صعدت خلف حريش ومعها حسنية الحفَّافة، إنهم الآن ينعمون في الخور، يحيون الحياة الأبدية، لماذا تركتموني وحدي حتى أشهد ما أشهد من عذاب المناشي. ليتنى ما بقيت هنا.. سأصعد الآن إلى الخور لألحق بكم بعيدًا عن آلام المناشي، سأحكي لك يا سفيرة ما صنعه مرعي من بعدك بالمناشي، وسأحكي لك عن الرؤوس التي يعلقها كل يوم على نخلة بيت الرديني، آخرها حين شاهده الناس يعلق رأس حامد الرديني.

غدًا سأكون بينكم.. غدًا سأصعد.

عن الكاتب
أحمد قرني

- أحمد قرني محمد شحاتة.
- من مواليد الفيوم فى 1967.
- عضو اتحاد كتاب مصر.

صدر له:

1- "آخر سلالة عائلة البحار".. رواية، دائرة الثقافة والإعلام- الشارقة، 2005.

2- "حارس السور".. رواية، النشر الإقليمى- هيئة قصور الثقافة، 2006.

3- "الأقدس".. رواية، دار أرابيسك للطباعة والنشر والترجمة، 2011.

4- "كما يليق بحفيد".. رواية، سلسلة أصوات- هيئة قصور الثقافة، 2012.

5- "سماء الحضرة".. رواية، النشر الإقليمى- هييئة قصور الثقافة، 2014.

6- "مغامرات شادي في دنيا الحواديت".. قصة للطفل، الهيئة العامة للكتاب 2003.

7- "حكاية الغراب والحمامة".. قصة للطفل، كتاب قطر الندى، 2003.

8- "حلم النملة دودي".. قصة للطفل، الهيئة العامة للكتاب، 2009.

9-" ملك الحروف".. قصة للطفل، كتاب قطر الندى، 2011.

10- "لك العشق والنيل لي".. شعر، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع- الكويت 1996.

11- "جسد بارد بلا تفاصيل".. شعر، إبداعات- هيئة قصور الثقافة، 2001.

12- "البرواز".. مونودراما مسرحية، كتاب "عشر مسرحيات" عن النصوص الفائزة بجائزة مونودراما الفجيرة- ط أولى 2010.

13- " عصفور وحرف ووطن".. ديوان شعر للأطفال، دائرة الثقافة بالشارقة، 2008.

14- "سلسبيل".. مسرحية للأطفال، الهيئة العربية للمسرح- الإمارات، 2011

15- "الوزير عطعوط"، كتب الهلال للأولاد والبنات-مؤسسة دار الهلال 2013.

الجوائز:

1- جائزة الشارقة في الرواية عن: "آخر سلالة عائلة البحار" 2004.

2- جائزة مجلة الصدى في الرواية عن: "حارس السور".

3- جائزة وزارة الثقافة التي نظمتها مجلة الثقافة عن رواية: "مثل قطعة كريستال" 2009. المركز الأول.

4- جائزة اتحاد كتاب مصر عن رواية: " الأقدس" 2012.

5- جائزة نادى القصة في الرواية عن: "آخر سلالة عائلة البحار" 2003.

6- جائزة نادى القصة في الرواية عن: "عذابات رجل المنفي" 2005.

7- جائزة النيل (سوزان مبارك سابقا) لأدب الطفل 1998. المركز الأول.

8- جائزة الهيئة العربية للمسرح- دولة الإمارات العربية عن: سلسبيل".. مسرحية للأطفال 2009.

9- جائزة الشارقة في أدب الطفل عن كتاب: "عصفور وحرف ووطن" 2007.

10- جائزة دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع بالكويت عام 1996 عن: "لك العشق والنيل لي".

- شارك في عدد كبير من المؤتمرات الأدبية والثقافية، وله إسهامات عديدة في تلك المؤتمرات.
- تناول أعماله عدد كبير من النقاد من المصريين والعرب.
- أعدت عن أعماله دراسات نقدية داخل الجامعات المصرية منها رسائل ماجستير.

رُشحت روايته "الأقدس" لنيل جائزة الدولة التشجيعية، كما رُشح لنيل جائزة الدولة في الفن بأكاديمية مصر في روما واعتذر عنها آنذاك.

@ حقوق الطبع محفوظة
دار النسيم للنشر والتوزيع